فنتازيا
رواية

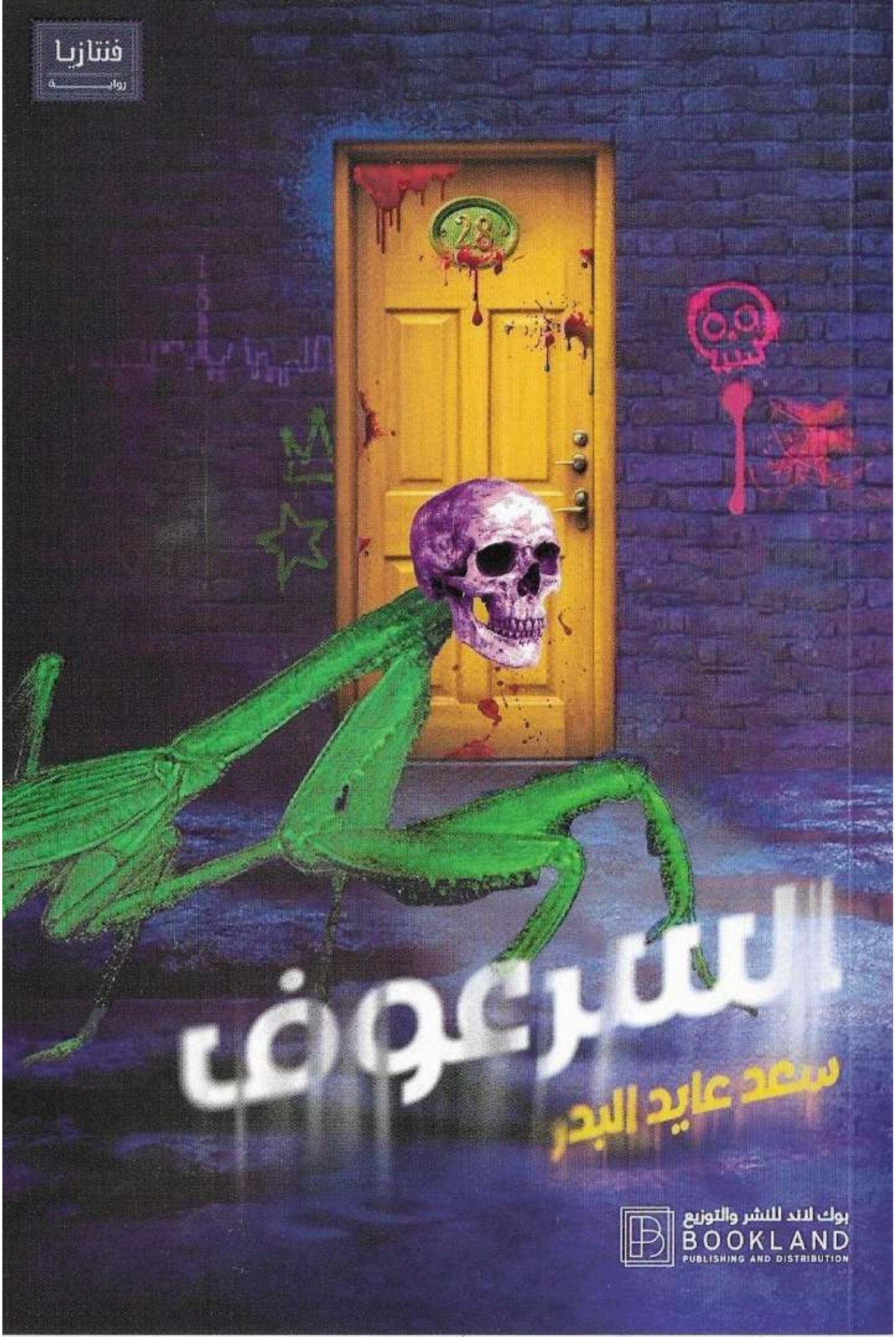

السرعوف

سعد عايد البدر

بوك لاند للنشر والتوزيع
BOOKLAND
PUBLISHING AND DISTRIBUTION

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أنوار

https://t.me/osn_osn

Scan me!

السرعوف

سعد عايد البدر

مكتبة إيلينا

Elena book

ردمك : 978-1-956510-37-9

جميع الحقوق محفوظة

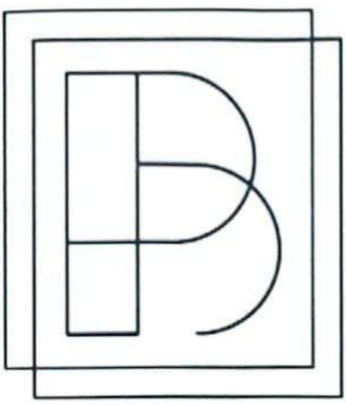

بوك لاند للنشر والتوزيع
BOOKLAND
PUBLISHING AND DISTRIBUTION

booklandkw
bookland.kw
www.booklandkw.com

جميع شخصيات الرواية وأحداثها من وحي الخيال، وأي تشابه بينها
وبين
شخصيات حقيقية هو من قبيل المصادفة

مقدمة

خيال الإنسان.. ملاذه

الإهداء

إلى الرجل الذي أخبرني أنه
"الفبـــذل"!!

الفصل الأول

-من مذكرات سعاد الخاصة-

مفكرتي العزيزة...

اليوم تقدّم لي رجل جديد لكي يخطبني. تعلمين أني خارجة من تجربة سيئة جدًا مع زوج سابق كان يضربني، ويذيقني الأمرّين بشكّه وبغيرته وبسوء ظنّه، ناهيكِ عن لسانه السليط وطريقته الفظة في التعامل. تعرفين كيف تركت هذه التجربة أثرها البالغ في نفسي، حتى حينما كان أبي يحاول إزالة هذا الشعور بقوله:

"الرجال ليسوا سواء، وإذا وقعتِ في علاقة مع واحد سيئ، فهذا لا يعني أن البقية كذلك يا سعاد".

كنت أقول له بتصميم:

"لم يكن مجرد رجل سيئ يا أبي وأنت تعلم ذلك. كان وحشًا متنكرًا في هيئة رجل، هو برغم وسامته، وطريقته الناعمة اللبقة في التعامل مع الآخرين ظاهرياً، إلا أنه ينزع أقنعته هذه على باب المنزل قبل دخوله، فإذا الوجه متجهم، والعينان تلمعان في ازدراء، حتى إني كنت أصرخ في ثورة:

"لما تزوجتني إذن؟". هل تعلم بما كان يردّ عليّ يا أبي؟".

لم ينطق أبي بكلمة يا مفكرتي العزيزة، فقط رمقني بنظرة صامتة تحمل الكثير من المشاعر، التي لم تخفف من انفعالاتي الغاضبة قيد أنملة، وأنا أقول بثورة:

"كان يقول ببرود إنه لم يضربني على يدي، ولم يجبرني على الزواج منه. كل شيء تمّ بإرادتي الحرة".

أشاح أبي بوجهه، وبدا أنه يمنع انفعالًا ما من التجسّد على صفحة وجهه. كان من المفروض أن أخبره أنه هو السبب، هو وأمي وأخواي سعدون وموسى. ضغطهم المستمر، ورأيهم فيه: (كم هو رائع وميسور الحال)، وأن امرأة متزوجة مهما كانت تعاستها، أفضل من آنسة مهما كانت سعادتها! لاحظي أني كنت في العشرين من عمري حينذاك. حين قابلته على مضض لفتت عيناه السوداوان نظري كأنّ فيهما كحلاً، وبشكل ما أحسست أنه مألوف. قلت ذلك لصديقة مقربة فقالت ربما تلاقت روحانا من قبل. في الشهور الأولى كان طيباً حلو المعشر والحديث، لكن بعد ذلك تغيّر تمامًا! ثلاثة أعوام (باستثناء الشهور الأولى منها) من الجحيم معه، ضرب وإهانة وسخرية، ثم إذا ظهر طرف ثالث من أهلي تحوّل إلى حمل وديع، حتى إنهم-تخيّلي-اتهموني بالمبالغة، وأنني أبحث عن عيوبه تحت عدسة مجهر، لمجرد أنه لا يناسب تصوري الرومانسي السطحي عن الزواج!

والحقيقة أنني لم أكن كذلك، صحيح أنني أفضّل وجود حب في علاقتي بشريكي، ومن ذا الذي يكره ذلك؟ لكن في نفس الوقت أرغب في أن يكون الاحترام المتبادل هو أساس التعامل بيننا.

وهذا لم يتوفر مع زوجي السابق.

أعود إلى حديثي، وإلى الرجل الذي تقدّم للزواج بي. ذكرَ لي أبي اسمه ووظيفته، وأخبرني أنه لا يرى فيه عيبًا. قلتُ له إنه قال الكلام نفسه عن سلمان. لمعت عيناه بغضب، وترك الحجرة بصمت أشعرني بتأنيب الضمير، وقلت لنفسي إنّ رفضي المتكرر لمن يتقدمون للزواج بي ربما يحرمني من شخص طيب، وليس كل الرجال مثل سلمان! ثم إن أهلي مارسوا ضغوطهم معي، لكن من قالت نعم في النهاية هي أنا. هكذا

قلت لنفسي في لحظة تأمل عميقة. وهكذا وافقت على مقابلته. قامت أمي بجلب خبيرة تجميل من أجل تزييني، لكني طلبت أن تكون الزينة خفيفة إلى أقصى حد. قالت معترضة:

"الفتيات لا يفعلن ذلك حين يقابلن عريسهن لأول مرة يا سعاد".

قلت بضيق:

"سأكون على طبيعتي يا أمي، وإن لم يعجبه فليشرب ماء البحر".

قلبت أمي شفتيها ممتعضة، لكنها لم تنبس بكلمة، فهي تعرف عنادي، وعنادي هذا هو ما جعلني أصمم على الطلاق من سلمان، لكن هذا الأخير رفض، وقال لي إنني لو فعلت المستحيل فلن أستطيع الإفلات من قبضته، وكأن الوغد يستفزني، ويريد إخراج أسوأ ما فيّ! قالها بصراحة، معلنًا التحدي. غلى الدم في عروقي، وفكرت جديًا في قتله، فهو لا يُعدُّ من البشر أصلًا، إنه وحش مفترس!

لكن أي محكمة لن تقبل بهذا كما تعلمين، ومن ثمّ فقد بحثت عن طريقة أخرى، ليرى الآخرون وجهه الحقيقي.

والحق أني لجأت إلى طريقة خبيثة لفضحه. ركزت في أكثر مكان في المنزل يستريح فيه، ويُطلق بشاعاته ومجرور القذارة بداخله، فوجدتها النافذة الشمالية، حيث النسيم العليل البارد، الذي يشعره بالقوة والارتياح، طبعًا لا أعرف ما علاقة هذا بذاك، لكن ربما هو انعكاس شرطي متعلق بذكرى ما. المهم أني جررته إلى الحديث في نقطة ما، وقد حرصت أن أفتح مكبّر الصوت في الهاتف، وقد اتصلت قبلها بأمي، وطلبت منها أن تضع الهاتف على المنضدة، من دون أن ينطق أحدهم بكلمة.

رحت أتحدث بهدوء، متأملة عينيه شديدتي السواد، وأنا أقصد فتح موضوعات معينة أعرف أنها تستفزه. اندفع المجرور بما فيه، وكان من بشاعته أني تخيلت أن أهلي قد أصابهم من رذاذه الشيء الكثير، وخطر لي أنّ والديّ وأخويّ يحتشد الدم في وجوههم، وأنه لو كان أمامهم لفتكوا به!

في الليلة نفسها أتى أبي ومعه شقيقاي سعدون وأمي. أما موسى فلا أعرف لما لم يأتِ. قال أبي بحزم بعد أن جلس بخمس ثوان تقريبًا:

"أخبرتني سعاد أنك سببتها وشتمتها بسبب.....".

كان سلمان يضع قناع الحمل الوديع بالطبع، فقال بذعر مفتعل:

"عمّاه! كيف لك أن تتصور أن أرتكب مثل هذه الجريمة الشنعاء؟!".

قال أبي بهدوء:

"كما دخلنا بالمعروف، فلنخرج بالمعروف".

بدا سلمان مصدومًا:

"هل صدقتها؟ كيف لك أن....".

قاطعه أبي ببرود:

"لقد كان هاتفها الخلوي مفتوحًا، ونحن نسمعك تقول كذا، وكذا، وكذا".

ومع كل كذا يقولها أبي، كان الدم يحتشد في وجه سلمان أكثر وأكثر، حتى كاد وجهه يحتقن توطئة للانفجار، ثم راح طلاء القناع الذي يضعهُ يتساقط، وتبعه القناع نفسه، ثم قال بزئير يعلن أنه قد عاد إلى طبيعته الحيوانية الحقة:

"لو كنتُ ربّيتها جيدًا يا عمي ما فعلت ذلك".

قال أبي بذات البرود:

"ربّيتها جيدًا إلى درجة أنني شككت في تربيتي لها حين أخبرتنا عن حقيقتك، لكننا لم نصدقها للأسف".

هز سلمان كتفيه ساخرًا:

"يصعب تصديق ذلك بالفعل، فمن يصدق أن شخصًا مثلي هكذا؟".

قال أبي بمقت:

"لقد أحسنتَ التظاهر بذلك أيها الحقير!".

قال سلمان بذات السخرية:

"التظاهر بذلك يستحق، فلا توجد متعة مثل أن أضرب زوجتي الحبيبة، وأسومها الخسف!".

تكهربَ الجوّ، وهمّ أخي سعدون بأن يفتك به، ناهضًا من جلسته المتصلبة، حيث يضع يديه بين فخذيه، لكن أبي أسكته بإشارة من يده، ليعود أخي إلى الوضعية ذاتها. ساد صمت، وأمي تهمهم بكلمات غير مفهومة وإن كنت أخمّن أنها سيل من الشتائم، وعينا أبي تنبئان عن غضب عظيم يضطرم داخله، لكنه تمالك نفسه وقال:

"كيف تسمح لنفسك أن تضرب زوجتك؟ هل أهانتك؟ هل قصرّت في حق من حقوقك؟".

"لم تفعل في الحقيقة، بل كانت كالخاتم في إصبعي، لكن ماذا أقول عن شعور المتعة الذي أشعر به حين أضربها؟ هذا شعور يفوق أي شيء!".

وتنهد:

"لهذا تفهم أننا لن نخرج بالمعروف كما دخلنا بالمعروف".

قال أبي مستجمعًا هدوءه قدر المستطاع:

"سنبرئك من كل حقوقها المادية".

هز رأسه:

"لا يكفي. قد أوافق في حالة واحدة فقط".

سأله أبي بتوجس:

"وما هي؟".

استرخى الوضيع في مقعده، وقال وهو يحك ذقنه:

"أن أضربها أمامكم الآن، حتى أشفي غليلي وأحقق متعتي الكاملة، ثم حين تبرئوني من كل شيء من حقوقها المادية وبشكل رسمي، فسوف أقوم بتطليقها بعدها".

تبادلتْ نظرة صامتة مع أبي، الذي قال وهو يُدير وجهه نحو سلمان:

"أهذا قرارك الأخير؟".

قال سلمان بحزم:

"ولا رجعة فيه".

التفتَ أبي إلى أخي سعدون:

"هل سجلّت كل شيء يا بني؟".

رفع سعدون فجأة يديه اللتين كان يضعهما بين فخذيه، وإذا به يمسك بهما هاتفه الخلوي، وهو يبتسم بخبث. توتّر سلمان في جلسته معتدلًا وقال بعصبية:

"ما معنى هذا؟".

قال سعدون:

"كل ما قلته بالصوت والصورة يا زوج أختي الوغد. تعرف ما سيحدث بالطبع لو قمتُ بتحميل هذا الفيديو على حسابي على تيك توك. سأجعلك شهيرًا بين يوم وليلة. الأمر يحتاج إلى ضغطة واحدة

فحسب".

التعبير الذي رأيته على وجه سلمان يا مفكرتي الحبيبة يذكرني بالثعلب الذي وقع في مصيدة مُحكمة لا فكاك منها. لقد غسلني من الداخل، وأشعرني بارتياح عارم. طبعًا كان واردًا أن يفتك بأخي ويأخذ منه الهاتف الخلوي وخاصة أنه ممشوق القوام، وقوي فعلًا، لكنه لن يستطيع، بسبب أن والدي ضخم الجثة، وهو برغم أدبه الرفيع، لكنه ملاكم سابق، ناهيكِ على أن سعدون ورثَ منه البنية الضخمة ذاتها، والاشتباك معه غير مأمون العواقب. بعد برهة قال سلمان بلهجة مستسلمة:

"ماذا تريدون؟".

***

لم يجد سلمان أمامه من سبيل إلا أن يطلقني، على أن نحتفظ بذلك المقطع المصوّر له كورقة ضغط وقت اللزوم لو قرر ممارسة حقارته بعد الانفصال عنه. تعرفين تلك النوعية من البشر الذين لديهم اعتداد مرضي بذواتهم، ويكرهون الهزيمة كراهية عمياء. لكم شعرتُ براحة عميقة بعد أن انتهى ذلك الكابوس، وطويتِ تلك الصفحة السوداء من حياتي. لكني كنتُ جميلة، وبرغم سعادتي بجمالي هذا الذي لا فضل لي فيه بطبيعة الحال، لكني أجده يسبب لي بعض المشكلات أحيانًا من ضمنها تقاطر الخُطّاب على باب والدي. يسمع هذا أن للأستاذ إبراهيم ابنة فاتنة، ثم ينتقل هذا الخبر إلى ذاك، ويلتقطه طرف ثالث، وهكذا تتسع الشبكة وتتعقد وتتقاطع، ويولد كابوس جديد!

وذلك الكابوس عليّ أن أتخذ قرارًا بشأنه كلما تقدّم أحدهم للزواج بي، هل أقبله أم أرفضه، لكن ماذا أفعل مع عقلي الذي يجعلني أتخيل ملامح سلمان في كل وجه جديد يريد أن يدخل حياتي؟

تولدت لديّ عُقدة أنهم وجوه مختلفة للوحش ذاته القابع في أعماقهم! ومع كل رفض كان التذمر في عائلتي يعلو ويزداد، حتى صار هديرًا يصمُّ أذنيّ من شدته. ومع شدة السيل تخور المقاومة في النهاية، وهذا ما حدث لي. وهنا يأتي الدور للحديث عن ذلك الشخص الجديد الذي تقدّم لي، والذي بدأتُ به حديثي معكِ اليوم.

***

اسمه يوسف سلطان، يعمل صحفيًا. وهذا كل ما وصلني من أبي عنه. كنت أتأمل ملامحي في المرآة، والتي توهجت قليلًا فبدت أكثر جمالًا، مما جعلني أهز كتفيّ في رضا، قبل أن ينفتح الباب وتدلف منه أمي قائلة بصوت هامس ينضح بالسرور:

"لقد أتى!".

بدت أقول لها:

"وما الجديد؟ كلهم يأتون، قبل أن أرفضهم!".

لكني لم أفعل طبعًا، فقط هززتُ رأسي باهتمام مزيف، وأنا أجلس أفرك يديّ بتوتر وأنا أعلم كيف ستأتي اللحظات القادمة. صدقَ حدسي، أو قُولي خبرتي المبنية على العديد من المواقف المطابقة للموقف ذاته، فقد انفتح الباب مجددًا، وقالت أمي:

"العريس ينتظر يا بنيتي، من أجل الرؤية الشرعية".

نظرة لوم رميت بها أمي فقالت بضيق:

"أتمنى أن يتغير حظك السيئ الليلة".

لم أنطق بحرف. فقط غادرت الغرفة، وتوجهت إلى الصالة الرئيسية حيث ينتظر العريس مع أهله. كان عادي الملامح، متوسط الطول، له

شارب رفيع، ويبدو أنيقًا وهادئًا بشكل مبالغ فيه، بل-وصدقي أو لا تصدقي-كان يحدق إلى السقف بشرود! ألقيت السلام فنهضوا جميعًا، ووالدته وشقيقته تفحصاني بأعينهما من رأسي حتى أخمص قدميّ، أما يوسف هذا فلم يفعل، فقط نقل اهتمامه من سقف منزلنا إلى الفراغ القابع أمامه، وبرغم أنه كان ينظر إليّ فإنه في الواقع لم يكن كذلك، وكأني شبح لا يُرى قد استطاع أن يخترقه بنظراته!

عريس غريب من نوعه! المصيبة أن (أول القصيدة كفر)، وهذا أولها!

جلسنا، ثم انطلقت تلك المقدمات التي تُقال في ظروف كهذه، ثم اختلينا ببعضنا بعضاً. فور أن جلسنا، حدقتُ إلى وجهه ثم قلت بغتة:

"هل أنت وغد؟".

الحق أنه لم تختلج عضلة واحدة في وجهه، لم تبدُ عليه الدهشة أو الذعر أو الاضطراب، فقط تحركت رموش عينيه فحسب، ثم قال بعد برهة:

"هذا سؤال تصعب الإجابة عليه، لكن مجملًا هذا وارد".

جاء الدور عليّ لكي أندهش من تصرفه.

"أي إجابة هذه؟".

قال بسرعة:

"وأي سؤال هذا؟".

"إجابتك غير صادقة إذن؟".

هز كتفيه:

"غير صحيح. لكن من يستطيع أن يقول عن نفسه أنه وغد أو غير وغد؟ هذا تصريح يحتاج من المرء قدرًا هائلًا من الثقة أو الغرور، والحق أني لا أملك أحدهما".

أصابني سهم السكوت فسكتُّ. هنا جاء الدور عليه ليقول مبتسمًا بمكر:

"أعرف أن ما يدور في ذهنك الآن، أني شخص ذكي أجبت على سؤالك إجابة غائمة. لو حددتِ أكثر لقلتِ إني كذاب".

بالفعل هذا ما دار في ذهني. هنا قال بصراحة أكثر:

"لا ضمان في أن الشخص الجالس أمامكِ جيد أو غير جيد. طبعًا كان من الممكن أن أنصحكِ بأن تجربي حظك معي، ثم ستعرفين على الطبيعة حقيقتي. لكن لم أكن لأجرؤ أن أنصحكِ بذلك، وقد علمتُ من والديّ بأنكِ قد خرجتِ من تجربة صعبة، لكن....".

صمتَ للحظة، ثم للحظات، ثم بدا أنه لن يكمل جملته، وسيخرس إلى الأبد!

وصمتُ بدون أن يضيف كلمة، وقد بدا أنه قال أكثر من اللازم. الحق أن إجابته (لو جاز أن أطلق عليها إجابة) جعلتني أرتبك قليلًا. إنه مختلف بعض الشيء عن الأوغاد الآخرين. قال لي عقلي بسخرية: ربما هو نوع جديد من الأوغاد لم تقابليه من قبل. أخبرتكِ إنني كنتُ هشّة، وفي أضعف حالاتي، والحديث عن هذا الأمر لا ينتهي، وبطبيعة الحال لن يحضر الخُطّاب إلى باب منزلنا كثيرًا، فالزمن يمرُّ، وسمعتي كمتكبرة ترفض الزواج ستسري في المجتمع حولي، مثل سريان النار في الهشيم، وفي النهاية سيعمُّ الصمت، وأموت وحيدة!

مجرد تسلسل هذا الخاطر في ذهني جعلني أرتجف على الرغم مني، وشتمتُ في سري سلمان الذي أفسدَ عليّ حياتي. هكذا تفعل الجروح العميقة في النفس!

انتهت الجلسة وانصرف العريس ووالداه، ثم أقبل أبي وأمي، وفرك

الأول يديه في ترقب:
"ما رأيك؟".
قلت بدون أن أتردد للحظة واحدة:
"موافقة".

***

مفكرتي العزيزة...

مضى شهر على خطبتي ليوسف. لا بد أنك تريدين سؤالي عنه من حيث الطباع والمعاملات، وهل هو مختلف عن سلمان كبير الأوغاد. حسنًا، إنه مختلف. الحق أنه مختلف كلياً، وهذا الاختلاف لصالح يوسف بدون شك. يوسف من الطراز الذي يهتم كيف يراه الآخرون، يتحرك بعفوية، وحين يتكلم مع أحد يحدق إلى وجهه بدون أن يركز في عينيه، وكأنه يقول: "أعطيك الاحترام اللازم يا صاح، لكن ليس إلى درجة أن أكون وقحًا، وأحدق في بئريّ الجحيم هاتين!".

ربما تقولين لي الآن: عظيم! لا توجد مشكلة إذن. لقد تحقّق حلمك في وجود شخص جيد في هذه الحياة. حسنًا يا مفكرتي العزيزة، ليس الأمر بهذه السهولة. صحيح أن سلمان كان وغدًا، وكان حرباء متلونة، وكان ذا طبقات، لكن اكتشاف ذلك أخذ وقتًا طويلًا. في حالة يوسف، ربما لا يكون وغدًا، ربما هو أفضل من سلمان بمليون مرة، لكن هذا لا يعني أني سعيدة.

وخذي مثالًا على ذلك موقف المطعم، الذي حدث بعد الخطبة بشهر، ولاكن دقيقة قد حدث اليوم، والحق أن هذا هو السبب في تسجيل تلكم التفاصيل. استعدي يا مفكرتي العزيزة لما هو آتٍ، فهو شديد الغرابة بشكل لا يمكن تخيله!

***

المطعم يقع في منطقة السالمية، مكونٌ من طابقين، كنا في الثاني، نتطلع من النوافذ الزجاجية إلى الخارج، ومما زاد من جمال المشهد تلك البحيرة الصناعية على هيئة دائرة محيطة بالمبنى، ثم يليها حزام من الأشجار الكثيفة تمثل بعض محتويات حديقة حرصَ أصحابها على أن تكون ذات طابع وحشي، بحيث تختلف عن تلك الأشجار المألوفة المستأنسة المهذبة بعناية، وكأن الحديقة من يراها يظن أنه قد سافر إلى ما قبل التاريخ المكتوب حيث الأشجار الضخمة ورائحة الهواء البكر. جلستُ أتأمل المشهد البديع، بينما يوسف يبدو منهمكًا في قراءة قائمة الطعام، وراقَ لي أن أتأمل ملامحه. أريد أن أعترف لكِ يا مذكرتي العزيزة أن ثمة ما أثار انتباهي بخصوص ملامحه هذه. لا أقصد كونه وسيمًا أو لا، فملامحه عادية جدًا، مثل العشرات ممن نراهم في الشارع. لا بشيء مميز، حتى شاربه الرفيع الذي يذكرني بالأوغاد كما نراهم في الأفلام، لكن....

لكن لماذا لا أحفظ ملامحه؟ لماذا لا توجد له نظرة معينة، أو ابتسامة معينة، أو حتى تفصيلة معينة من تفاصيل وجهه، كشدة سواد العينين مثلًا الموجودة في سلمان، أو الأنف المستقيم، إلى آخر تلك التفاصيل، بحيث أتذكره فيها؟ كلما فكرتُ فيه أحاول أن أحاصر ملامحه في ركن معين في ذهني، لكن بلا جدوى، فبطريقة سحرية يتملّص مني، ويختفي!

وإذن-وفي تلك اللحظة التي كنتُ أحدق فيها إلى وجهه-كنت أعلم أني سأنسى ملامحه فور أن أحوّل بصري عنه!

وبالفعل، حولت بصري، لكن مضطرة، إذ أحسستُ أن هناك من

يحدق إلى ظهري بتركيزا استدرت إلى الخلف، وبالفعل كانت هناك مائدة يجلس إليها ثلاثة شبان، بدا من هيئتهم وطريقة جلوسهم وتلك الابتسامة الوقحة المرتسمة على وجوههم أنهم أثرياء أو أبناء أثرياء، ويتعاملون مع الآخرين باستهتار شديد. كانوا في العشرينات تقريبًا، وكان الشاب الذي يجلس في المنتصف هو أوسمهم، ويبدو أنه يعرف هذه المعلومة فراح يُسبّل عينيه، فغلى الدم في عروقي. فيما بعد سأعرف أن أسماء الثلاثة هي: مشعل(الوسيم) وأخواه هما: سامي وحسين. عدتُ مجددًا إلى يوسف الذي سمع زفرتي الحادة فقال مستفهمًا:

"ما الأمر؟".

رسمت على شفتي ابتسامة:

"لا شيء".

أستدير مرة أخرى- فإذا الأوغاد يتمادون، وذلك الوسيم الرقيع يرفع كأس العصير على سبيل التحية بصفاقة منقطعة النظير. زفرتُ مرة أخرى، ويبدو أن يوسف قد انتبه إلى الأمر، فكرر سؤاله بالهدوء ذاته:

"ما الأمر؟".

لم أنطق بكلمة، لكن نظراتي الموزعة بينه وبين الشبان الثلاثة أنبأته بشكل مبهم عن المشكلة. ألقى نظرة باردة عليهم ثم استدار إليّ وقال:

"هل تعرفينهم؟".

هززت رأسي أن: لا. فوجئت أنه قد نهض من مقعده وتوجّه إلى الثلاثة بثبات. تجمّد عقلي للحظة، وعندما أفاق كان يقف أمام الثلاثة بالفعل. قال الوسيم:

"ماذا تريد يا فتى؟".

قال يوسف بتؤدة:

"أنا أكبر منك سنًا، والمفترض أني من أناديك بكلمة" فتى" هذه. على أية حال، أنتم تضايقون خطيبتي بنظراتكم الوقحة غير المهذبة. أرجو ألا تتكرر مرة أخرى وإلا...".

خفقَ قلبي في تلك اللحظة، وخطر لي أني سأشاهد معركة تتطاير فيها الرؤوس، وأن الثلاثة سيطحنون يوسف، وسأحمل دمه في عنقي حتى الممات. هذا ما جعلني أنهض وأقول:

"دعك منهم يا يوسف، ولننصرف من هنا".

وألقيت نظرة بطرف عيني على الموائد المشغولة بأصحابها، والأعين تبرق متلهفة لما سيكون. تجاهلَ يوسف كلامي، وهو يحدق في الشبان الثلاثة بنظراته الملتهبة. نهضَ مشعل، وهنا تسارعت خفقات قلبي، إذ إنه بسبب جلوسه لم يتضح لي مدى طوله الفارع ذاك، ولا عضلاته التي تنتفخ وتتقلص بجنون خلف ملابسه الفضفاضة. ابتلعتُ ريقي، وبرغم أنه ليس من أخلاقي، لكنه على سبيل الضرورة التي قد تمنع كارثة مقبلة، فقلت وأنا أجذب يوسف من ذراعه:

"هيا بنا ودعك منهم".

ألقى يوسف نظرة عليّ ثم هز رأسه موافقًا، وتنفستُ بارتياح، لكن فرحتي لم تدم، فقد قال مشعل مستفزًا:

"أبهذه البساطة تنصرف يا فتى؟ أم تخشى أن تُحوّل إلى لحم مفروم؟".

توقفَ يوسف ونظر إليهم مجددًا، لكني جذبته بغلظة وقلت له:

"لا تتهورا إنهم ثلاثة من التافهين لا تعرهم انتباهًا. ولا تجعلهم يجرونك إلى معركة سخيفة لا داعي لها".

كنت أعلم بمقارنة بسيطة بين جسده وأجسادهم أن المعركة لن تكون لصالحه. نظر يوسف إليهم باحتقار وقال:

"لولا خطيبتي هذه للقنتكم درسًا لن تنسوه أبدًا".

قال الوسيم ببطء:

"هكذا إذن!".

ثم شاعت على وجهه ابتسامة مرحة وهو يقول:

"الشكر لخطيبتك إذن لأنها أنقذتنا من ذلك المصير الأسود الذي كان ينتظرنا على يديك".

انفجر بعض الجالسين ضاحكين، بينما أشارَ مشعل إلى أخويه بأن يعاودا الجلوس. بدا أن الزوبعة قد هدأت، وتوجهت مع يوسف إلى مائدتنا. كنت متوترة بحق، وقد وجدت أني بحاجة إلى الذهاب إلى الحمّام. وبالفعل نهضت وذهبت إلى هناك بعد أن اخترت ما سأتناوله من القائمة. كم مضى على مكوثي في الحمام؟ أعتقد ما يقرب من اثنتي عشرة دقيقة، وحين عدت وجدت زحامًا حول شخص ما على الأرض ينزّ الدم من جسده. قلت مصعوقة:

"يوسف!".

وجثوت على ركبتي أسنده، والدم يسيل من طرف فمه وأنفه، وثمة كدمة عنيفة في صدغه سحقت جزءًا من الجلد، إلى درجة أنه تدلى بشكل بشع! قلت بغضب:

"من فعل هذا؟".

أشار أحد الواقفين وسط الزحام إلى مشعل ورفيقيه وهم جالسون يتناولون طعامهم ويضحكون. سألت الرجل:

"وماذا حدث؟".

"لقد نهضوا من مائدتهم واستفزوه مجددًا، لكن خطيبك-والحق يقال-كان باردًا بشكل مثير للإعجاب، ولم ينجرّ إلى المعركة التي يريدون افتعالها. وهنا قام مشعل هذا بسكب كوب الماء على رأسه وهنا جن جنون خطيبك هذا، وهمّ بضربهم لكن الثلاثة تجمعوا عليه وضربوه بشراسة مجنونة، وكانت النتيجة ما ترينه الآن".

استدرت بوجهي أنظر في الزحام وقلت باحتقار:

"ألا يوجد فيكم شخص شهم حاولَ أن يوقف ذلك العراك؟".

خفض الواقفون رؤوسهم خجلًا أو جبنًا أو لا مبالاةً. نهضت وأنا أسند يوسف وقلت:

"سأذهب إلى المخفر الآن، وسأقدم بلاغًا للشرطة. لن أدع ذلك الأمر يمرّ بسهولة".

فجأة ظهر رجل وقور وكاد يجثو على ركبتيه وهو يقول:

"أعتذر لك يا آنسة. لم يكن هذا مقصودًا على الإطلاق. إنه مجرد خطأ".

قلت مستنكرة:

"خطأ؟ هل ترى وجه خطيبي جيدًا أم أنك قصير النظر؟ لقد طحنه ثلاثتهم! لن أتنازل عن بلاغ للشرطة".

قال مستعطفًا:

"سأقوم بعلاج هذا الرجل على نفقتي وتعويضه وسأجعل لكما خصمًا لمدة سنة كاملة تجيئان إلى هنا بدون أن تدفعا شيئًا".

قلت بدهشة:

"هل أنت صاحب المطعم؟".

"نعم".

"إنها المرة الأولى التي أرى فيها صاحب مطعم يتحمل أخطاء زبائنه الأوغاد!".

قال بضيق:

"إنهم أولادي الثلاثة".

قلت ببطء، وقد اتضحت الرؤية:

"هكذا! لقد فهمت".

ثم قلت بعناد:

"لكن هذا لن يثنيني عن الذهاب إلى...".

قاطعني يوسف، وقال بحزم هادئ:

"لقد قبلنا اعتذارك يا سيدي".

قلت مصعوقة:

"ماذا تقول يا يوسف؟".

قال يوسف:

"كلنا يرتكب الأخطاء. ثم إنهم يافعون، والشباب يرتكبون الأخطاء. أراهن أنهم عندما يكبرون سينضجون قليلًا".

ابتسمَ صاحب المطعم وقال بارتياح:

"أشكرك يا سيدي على تفهمك".

قال الرجل الذي حكى لي ما حدث:

"لقد حدث هذا أكثر من مرة في هذا المطعم. من تخادع؟".

قال صاحب المطعم:

"من أنت؟ ومن أذنَ لك لتتدخل فيما لا يعنيك؟".

هز الرجل كتفه:

"أولادك عبارة عن وحوش صغيرة يا سيدي، والزمن سيمنحهم فرصة كي يغدوا وحوشًا من الحجم الكبير فحسب!".

أشارَ صاحب المطعم بيده فانقضَّ ثلاثة من الضخام على الرجل وأخرجوه بالقوة. قلت لنفسي: لماذا لم يتدخل الثلاثة لحماية يوسف من أولاده؟ ملتُ على أذن يوسف:

"أصدّق الرجل فيما قاله. لا تدع حقك".

قال يوسف:

"لن أتقدم ببلاغ إلى الشرطة. انتهى الأمر".

انشرح صدر المدير وهو يطلب منا الجلوس، وقد تكفّل رجاله بتضميد جروح يوسف، وبإعداد وجبة شهية لنا، بينما ألقيت نظرة على أولاده وهم يضحكون باستهزاء. انتهينا من الطعام ونهضنا، ومررنا على الثلاثة ونحن نغادر، وفي تلك اللحظة وقف مشعل ومالَ بشكل يبدو عفويًا على أذن يوسف، وقال بصوت سمعته بوضوح:

"في ظروف أخرى كنت سأجتث رقبتك بدون رحمة".

في تلك اللحظة، استدار يوسف نحوهم، وكانت هناك مرآة عملاقة على الجدار، ذات زخارف أثرية. تجمّد يوسف برهبة، وبدا الخوف للحظة على وجهه. نظر إليّ ثم قال هامسًا:

"هل رأيتِ ما رأيته؟!".

قلت بدهشة:

"ماذا؟".

"حين نظرت في المرآة خُيّل إليّ أنّ عينيّ قد تحول لونهما إلى اللون الفضي!".

***

مفكرتي العزيزة

لوهلة ارتجفَ جسدي حين سمعته يقول هذا، لكني قلت لنفسي إن ذلك من تأثير الأضواء الساطعة في المكان. ومع ذلك احتلّ ذلك المشهد بؤرة تفكيري طوال فترة تجهيزنا لحفل الزفاف. هل يمكن أن يكون زوجي-بفرض حدوث ذلك-مختلًا؟ لكن ذات يوم لم أحتمل. سألته بحذر إن كان واثقًا مما رآه في تلك الليلة فضحك:

"لا شك أنها خيالات من تأثير الأضواء الساطعة!".

كنا نجلس في منتزه رائع الجمال، وكان قد تبقّت أيام على زواجنا. الزواج الذي يبدو لي أشبه بالمجهول مع شخص مثل يوسف.

قلت باهتمام:

"لقد بدوتَ متأكدًا مما رأيته".

لوّح بيده:

"في مكان مليء بالإضاءة القوية، يمكن لشخص مثلي أن يصدق. أليس كذلك؟".

وغمزَ بعينه بمرح:

"من المفترض أن يشعركِ هذا بالاطمئنان، فلو كنتُ كائناً فضائيًا لأخبرتك دون شك، وإلا سيكون الأمر خداعًا أصيلًا مني".

كما ترين فقد أخذ الأمر ببساطة، وكان من المفترض أن أشعر بالارتياح، لكن-لسبب ما غامض-لم أشعر به. تمّ زواجنا على خير، وكانت الأيام الأولى رائعة، ولم نذهب إلى شهر عسل كما يفعل غيرنا، فالحقيقة لقد قضيت شهر عسل مع الوغد سلمان، وكان شديد الجمال قبل أن يسقيني المرّ بعد ذلك. أصارحكِ أن ذلك المشهد الذي رأيته كان مطبوعًا في ذاكرتي، منحوتًا في خلاياي الرمادية لو جاز التعبير، وبالتالي صارت فكرة أن أكون بمفردي مع شخص مثل يوسف في مكان غريب مرعبة!

المرعب أكثر أني أشعر بأنّ وراءهُ شيئًا ما لا أعرفه. صحيح أن كل واحد منا يملك جانبًا من الغموض والأسرار، لكن عند يوسف يصير الأمر مختلفًا. أتأمل صدره وهو يعلو ويهبط، مصدرًا شخيرًا مزعجًا، ثم وهو ينقلب على جانبه، فيصير ظهره في مواجهتي، وأتساءل عما يخفيه، ولماذا أنا خائفة هكذا؟ وهذا في حد ذاته رعب جديد، حيث إني مرتعبة من الغموض، من عدم الفهم. لم تكن لديّ ملاحظات متعلقة بشخصيته. لكني لاحظت أنه يصحو مبكرًا، ويرتدي زيَّهُ الرياضي وينطلق بعد الفجر. وحين سألته قال بهدوء أقرب إلى السخرية واللوم:

"ماذا سيفعل شخص يرتدي زيًا رياضيًا؟".

قلت بتردد:

"يركض مثلاً؟".

ابتسم من دون أن يجيب.

حتى حدث ذلك الشيء الذي حوّل الشهر الأول من زواجي إلى جحيم.

قلت له على سبيل المزاح:

"هل تعرف إلى أين أريد الذهاب للعشاء؟".

نظرة متسائلة في عينيه تعني بأنني لن أحظى منه حتى بسؤال. قلت:

"ذلك المطعم الذي ذهبنا إليه من قبل".

بدا الامتعاض على وجهه. لوّح بيديه معترضًا:

"هناك العديد من المطاعم الجيدة، فلِمَ هذا المطعم بالذات؟".

لم أخبره السبب الحقيقي. إنه يتكلم عن إضاءة المطعم القوية، التي

تجعلني أتصور أنّ عينيه فضيّتان؟ هل يمكن أن يضرب البرق نفس المكان مرة أخرى؟

تحججث بالطعام الشهي، وتحت إلحاحي وافق. دخلت المبنى المميز بتلك اللافتة العريضة بالنيون على مدخله، وانتقلَ بصري تلقائيًا إلى المائدة التي يجلس عليها الأخوة الثلاثة. جيد. لا يوجد أحد منهم. كنت أسير بجواره، في ذلك الممر الذي سرنا فيه من قبل، وكانت الإضاءة تنعكس على وجهه، واقتربنا من المرآة العملاقة على الجدار، وترقبت أن ينظر إليّ ويقول بأنّ عينيه قد تحولتا إلى اللون الفضي، لكنه لم يفعل، وبرغم أن ملامح يوسف هادئة كعادتي به، إلا أني شعرت-فقط شعرت-بلمحة غامضة من التوتر تسبح على سطح وجهه.

سألته:

"هل أنت بخير؟".

رمقني بنظرة خاوية. جلسنا، وكان المطعم خاليًا بشكل نسبي. أدرتُ عينيّ في المكان. لدهشتي كان صاحب المطعم يجلس على منضدته الخاصة، حيث يراقب الزبائن كعادته، بدون أن يجلس في مكتب مُكيّف كما هي عادة المدراء أمثاله. الغريب أنه كان حزينًا شاردًا. قبل أن أشرع بالسؤال عما أصابه، وأتلقّى إجابة صامتة من يوسف، إذا بوجه مألوف يطل عليّ من أعلى وهو يقول:

"أأنتِ مرة أخرى؟ ألم تُحرمي من القدوم إلى هنا؟".

رفعتُ بصري بدهشة، فإذا هو الرجل الفضولي الذي قابلته المرة السابقة، وأخبرني عن ثلاثة الأوغاد! قلت بدهشة:

"هل أنت مقيم هنا يا...".

قال وهو يجلس بدون دعوة:

"عمكِ فرحان".

لاحت نظرة اعتراض على وجه يوسف، لكنه لم ينطق بكلمة، وهو يتبادل نظرة دهشة معي، فقلت موضحة:

"لقد كان هو من....".

قاطعني وهو يتأمل وجه فرحان:

"أتذكّره".

أشرتُ إلى صاحب المطعم:

"ماباله؟".

نظرَ فرحان إلى حيث أشير وقال:

"إنه حزين".

"لِمَ؟".

حرّك فرحان يده بمرونة على سطح المنضدة، وكأنه يسبح بها على صفحة بحيرة:

"بسبب أولاده الثلاثة. لقد كانوا يسيرون في أحد الأزقة على أقدامهم، حين خرج إليهم رجل وهاجمهم. لقد كُسِرَتْ فكوكهم وعظامهم، وهم الآن في مستشفى (الشفاء) يُعالجون من إصابات خطيرة".

سألته بدهشة:

"ولم يتم التوصل إلى هوية ذلك الرجل؟".

ضربَ كفًا بكف، وقال:

"لا أحد يعرف. لقد استجوبوهم، لكنهم لم ينطقوا بكلمة تفيد في تحديده، حيث كان وجهه معتمًا، أو أنه ظهر في مكان معتم. يبدو أنه كان يراقبهم جيدًا واختار الوقت والمكان المناسبين، لكن يبدو من نظرة

الفزع التي كانت في أعينهم أنهم كانوا مرعوبين حقًا ممن فعل هذا بهم، كأنه ثأر شخصي يُردُّ إليهم".

سرت قشعريرة باردة في جسدي، وثمة فكرة معينة تقفز إلى ذهني، وأنا أقول:

"تقصد أنه انتقام؟".

"ربما هو كذلك".

حدقت إلى يوسف، وتلك الفكرة تنمو أكثر وأكثر في ذهني، بينما سأل هو فرحان:

"وكيف تعرف كل هذا؟".

"صاحب المطعم حكى كل هذا لنا، وبما أني من الزبائن المعتادين على القدوم، فقد سمعته بأذنيّ. مسكين! يكاد يُجنُّ مما حدث لهم".

قال يوسف بخشونة:

"يستحقون ما حدث لهم بدون شك".

الآن صارت تلك الفكرة المجنونة شجرة سامقة في ذهني!

***

هل توصلتِ إلى ما توصلت إليه يا عزيزتي؟ هل هناك احتمالية أن يكون يوسف نفسه هو من فعل بهم ذلك؟ الفكرة عششت في عقلي إلى درجة صار التنصل منها مستحيلًا. لهذا وجدتني أذهب إلى المستشفى كزائرة. فور أن رأوني بانَ الذعر على وجوههم. ذلك الوسيم(مشعل) لم يعد وسيمًا على أية حال بعد أن صار وجهه مليئًا بالحفر، التي غُطيت بالضمادات. وبدون كلمة أخرجتُ صورة واضحة ليوسف أريتها إياهم، فبدا الذعر جارفاً في أعينهم!

إنه هو من فعل بهم هذا! زوجي العزيز هو من فعلها! لكن كيف ولماذا؟

وحين كنت أعود إلى المنزل كنت أتساءل برعب:

"من تزوجت بالضبط؟".

***

مفكرتي العزيزة

في اليوم التالي كان عليّ أن أعرف الحقيقة أو أعرف بعضًا منها. يوسف نهاية مسدودة، ولن أظفر منه بإجابة تروي ظمئي الفضولي. حسنًا، إنه ليس فضولًا فحسب، بل خوفاً عارماً من المجهول!

بعد أذان الفجر شعرت به يغادر المنزل. كنت مستعدة. ارتديت ثوبًا عملياً وبسيطًا وتتبعته. كان يركض بقوة، وكنت أتبعه حتى كادت أنفاسي تتقطع. الفجر له رائحته المميزة، والشوارع خالية، والنسيم بارد يداعب الوجوه.

بعد مرور ثلث ساعة من الركض متوسط السرعة، توقفَ بغتةً. كنتُ أنضح بالعرق، وأنفاسي تكاد تتقطع. اختبأتُ وراء شجرة سدر عملاقة (كل المنطقة مكونة من شجر السدر فحسب، لذا سميتُ باسمه) حتى لا يُفتضح أمري، وكان عليّ أن أعرف لِمَ توقف.

حين نظرت إليه، وجدته يستند إلى شجرة سدر أخرى يلتقط أنفاسه.

أمعنتُ النظر في وقفته هذه، فوجدته يحدّق إلى مبنى قديم ضخم أسود الجدران، بدا مهجورًا ومقبضًا للنفس، لكنه لم يكن مهجورًا في حقيقة الأمر. على الأقل تلك اللافتة التي تقول بأنه مصحة نفسية. كانت مصحة السدر للأمراض النفسية من أقدم المباني هنا، وبحكم أني من سكّان المكان-حيث كنت في منزل أبي أولًا، ثم في منزل زوجي بعد ذلك-فبالطبع أعرف ذلك المبنى القديم، والذي أنشئ منذ ثلاثين عامًا

تقريبًا. لكن ثمة مصحات أقيمت بعد ذلك، في مناطق أفضل وبرعاية أفضل، وإن كانت هذه المصحة تتمتع بسمعة عجيبة في شفاء المرضى! الحق أني أتهيب ذلك المكان للغاية، وأهرب منه كلما سنحت لي فرصة، وهذا عجيب وغير مفهوم!

كان يوسف يمعن النظر فيها لعشر دقائق، ثم ألقى نظرة على الأفق، حيث راح النور ينتشر كشبكة من عروق الضوء الرفيعة. وهنا وجدت أن عليّ أن أولّي الأدبار أملًا في أن أصل إلى المنزل قبل عودته، وقد فعلت ذلك بكثير من الجهد.

حين عاد سألته:

"أين كنت؟".

قال بهدوء:

"كنت أركض كعادتي".

هززت رأسي بصمت. أعرف أنها إجابة صادقة، لكنها في نفس الوقت إجابة مخادعة، لا تقول شيئًا بالمرة. وها قد وجدتني أفكر في جهة أخيرة، ربما تكشف الغموض المستفز الذي يكتنف زوجي!

***

قالت هدى:

"بعد عامين من زواجي حضرَ يوسف إلى الحياة. كانت فرحتي به أنا وزوجي غامرة يا بنيّتي، ونحن نتطلع إلى ذلك الطفل الجميل. صحيح أنه كان لا يكفُّ عن البكاء وتحريك قدميه، لكننا قلنا بأن هذا يحدث لكثير من الأطفال".

هذا كان أول الغيث من فم أم يوسف. لا بد أن دهشتها كانت عارمة عندما فتحت باب منزلها فوجدتني أقف أمامها. قالت بقلق:

"ما الأمر يا بنيتي؟ هل يوسف بخير؟".

قلت بلهجة دفعتُ فيها أكبر قدر ممكن من الطمأنينة:

"إنه بخير يا أمي. اطمئني".

بعد تناولي لعصير لذيذ أعدّته بنفسها، حكيت لها عن عدم فهمي ليوسف فهو رصين أكثر من اللازم، عاقل متأنٍّ إلى حد مثير للغيظ. ضحكت أمه بمرح. كانت سيدة طيبة، من ذلك الطراز الذي يتكلم بعفوية وتلقائية، منها إذن أخذ يوسف طبيعته، عدا الفترة الأخيرة طبعًا. تكلمتُ وأخذت راحتها في الكلام لو جاز التعبير.

"هنا اقترحَ أحدهم بأنه يحتاج إلى التبديل!".

قلت بدهشة:

"التبديل؟ ماذا تقصدين؟".

لوحت بيديها:

"توجد أسطورة عن عدة أماكن هنا في الكويت، أماكن مثل مقالب القمامة، أو المباني القديمة، يمكن للأبوين أن يغيّرا فيها رضيعهما لو تركاه في ذلك المكان من المغرب إلى العشاء، ثم حين يعودان إليه يجدانه هادئًا رزينًا، ويظل هكذا حتى يكبر ويصير رجلًا".

قلت بامتعاض:

"ما هذا الهراء يا خالتي؟".

هزت كتفيها:

"هذا الهراء تحقّق معي بالحرف. كان يوسف قد أكملَ عامين، وقد أذاقنا بكاءه الويلات، ودمّر أعصابنا أنا وأبوه. اقترحتُ عليه هذا الأمر بعد أن سمعته من جارة لي، مرت بالتجربة ذاتها وأتت ثمارها معها.

رفضَ سلطان الاقتراح في البداية، لكن تحت إلحاحي وافق. وبالفعل، ألقاه في مبنى قديم كانت تُستخدم ساحته الخارجية كمقلب لتجميع القمامة، قبل أن تأتي سيارة البلدية وتنظفه. من المغرب إلى العشاء كمنّ أبوه يراقب الوضع، وفجأة راحت الكلاب تنبح!".

اعتدلتْ في جلستي. اتّخذ الموضوع صبغة قصصية، ومن فينا لا يحب القصص؟

واصلتْ حديثها، وابتسامة ترتسم على شفتيها:

"زوجي يخاف من الكلاب، لذا حين سمع النباح ولّى هاربًا. وحين شعر أنه في أمان لامَ نفسه وعاتبها على جُبنه، وكيف يترك وليده هكذا! عاد مسرعًا، ووجد يوسف في السلة كما هو، لكنه كان مختلفًا".

قلت متسرعة:

"هل كانت عيناه فضيتين؟".

حدقت إليّ حماتي في دهشة، وقال حائرة:

"ما هذا الكلام الغريب؟ بالطبع لا. كان يجلس بصمت وهدوء ينظر حوله من دون أن يرفس بقدميه، أو يملأ الدنيا صراخًا!".

ولوحت بيديها:

"ومن لحظتها وهو هادئ يتعامل بهدوء، لديه رزانة الكبار ورصانتهم، وكأن كل مشاعر الثورة والغضب والعصبية تلاشت بعيدًا وحلت مكانها مشاعر أخرى قوية راسخة".

وهزت رأسها بإعجاب:

"ولدي رجل منذ طفولته!".

تجاهلت تعليقها، وسألتها:

"لم تخبريني: أين يوجد هذا المقلب الآن؟".

"كان هذا منذ زمن طويل يا بنيتي. لقد تمّ تحويل المكان إلى مصحة نفسية! أنتِ تمرين بها كثيرًا. ذلك المبنى القديم حالك السواد! ما اسمها؟ ما اسمها؟ آه، لقد تذكرت. مصحة السدر للأمراض النفسية!".

***

مفكرتي العزيزة

حدثت المواجهة المحتومة أخيرًا. جلست في الصالة في العتمة أنتظر وصوله من العمل. في موعد عودته-وكما هي عادته-انفتح الباب وولجَ منه يوسف، والإرهاق على وجهه. نظر حوله مندهشًا من ذلك التغيّر، في منزله المظلم إلا من خيط بسيط من الضوء يتسلل من النافذة المفتوحة، حيث مصباح الإنارة الوحيد في الشارع الخلفي لمنزلنا.

قلت بغتة:

"نحتاج إلى التكلم والمصارحة".

لم يتحرك من مكانه ولم يجفل أو حتى يسبُّ مخرجًا نفسه من الشعور الكاسح بالمفاجأة. فقط نظرَ إلى مصدر الصوت، ومدّ يده إلى مفتاح الإنارة، حيث غرقت الصالة في الضوء، وقال:

"تجلسين في الظلام؟ هل من عاقل يفعل ذلك؟".

قلت بغيظ مكتوم:

"أشعر بالراحة في الظلام، إذ تغدو الأمور مسطحة ومتجانسة، ومتسقة. إن الظلام نوع من الصدق المطلق لو أردتَّ رأيي".

فتحَ فمه على سبيل الضحك، وكالعادة لم يخرج صوت القهقهة منه، وجلسَ قبالتي:

"أنا على عكسك أكره الظلام، أحب أن يكون كل شيء في النور".

قلت وأنا أتفرّس في وجهه:
"لماذا لا أرى هذا إذن؟".
قال ببرود:
"ترين ماذا يا سعاد؟".
لوّحتُ بيدي:
"هذا الـ"كل شيء" الموجود في النور. لماذا أنتَ تمثّل لي قطعة ظلام كبيرة جدًا".
رمقني بنظرة حادة، تكاد تسقط على رقبتي كالمقصلة، وقال:
"ماذا أصابكِ اليوم؟".
تأملتُ أظافري، هربًا من عينيه الثاقبتين وقلت:
"لقد زرتُ والدتك اليوم؟".
"ثم؟".
"ثم حكت لي عن المُبدِّل".
ضحك:
"آه، إنها تحب سرد تلك القصة كثيرًا. لقد حكتها لطوب الأرض لو جاز التعبير، ولو كان لديها حسابات على شبكات التواصل الاجتماعي لانتشرت قصتها بسرعة الصاروخ".
قلتُ بحنق:
"ألا تجد ما تقوله غريبًا؟".
هزّ كتفيه:
"تعرفين الخرافات التي تنتشر منذ مئات السنين، ويصدقها كبار السن".
قلتُ له بلوم:
" إنها أمك".
هزّ كتفيه:
"وكبيرة في السن".
قلتُ باهتمام وأنا أرقب ملامح وجهه:
"لكنك تقول بأنك سمعت هذه القصة كثيرًا".
"منذ طفولتي".
قلت بانتصار:
"أي أنهما كانا في سن صغير".
قال بجمود:
"ماذا تعنين؟".
" "لا يوجد دخان من غير نار. لا بد أنّ لهذه القصة أصلًا، أو على الأقل تنطوي على شيء من الحقيقة".
جلسَ قبالتي، وقال بهدوء لم يخلُ من نبرة تهكم:
"تظنين أنه تمّ استبدالي؟ أو بمعنى أدق: تظنيني بديلًا ليوسف الأصلي الشكّاء البكّاء؟".
قلتُ بنفاذ صبر، فلا أحب أن يتم تحوير كلماتي لمعنى لم أقصده:
"لم أقل هذا. قلتُ إن القصة ربما تحتوي على بعض الحقيقة. أنا محددة جدًا في كلامي".
بالهدوء ذاتهُ الممتزج بلمحة تهكم سألني:
"وعلى أي أساس تقولين هذا؟".
قلت بعد برهة:

"ما الذي حدث للشبان الثلاثة الذين استفزوك في المطعم؟".
قال ببرود:
"ماذا حدث لهم؟".
راقبت ملامحه جيدًا وأنا أقول:
"لقد هاجمهم أحدهم في زقاق مظلم وحوّلهم إلى لحم مفروم".
ابتسمَ ابتسامة صفراء بدت غريبة لي:
"كما تُدين تُدان".
الحق أن ثباته الانفعالي مدهش، فلم يرمش له رمش! قلت وأنا أضيق عليه الخناق أكثر:
"ليست لديك فكرة عمّن فعل هذا بهم إذن؟".
هز كتفيه:
"وما أدراني! ثلاثة أوغاد أراهم مضطربين نفسيًا. لن أستغرب من اكتسابهم لعدو كلما ساروا لبضعة أمتارا".
في ذلك كان هو على حق، وكنت أعلم أني لن أخرج منه بشيء. هل يمكن أن يكون مُصابًا بالفصام؟ الخاطر ذاته أرعبني، وجعلني أقول بلهجة متضرعة:
"أنت تحتاج إلى زيارة طبيب نفسي".
رمقني بنظرة باردة:
"هل تريننى مجنونًا؟".
"بل أراك تحتاج إلى المساعدة".
"كلنا نحتاج إلى المساعدة بشكل أو بآخر".
قلت بتضرع أكثر:
لو كان لديّ خاطرٌ عندك فلا ترفض".
تأملني بصمت، ثم اتجه إلى حجرته، وأغلق الباب خلفه بقوة. وهنا لم أجد أمامي سوى أن أنفجر في البكاء!

***

مفكرتي العزيزة
أنا أحسن حالًا اليوم من ليلة أمس. ها أنذا في حجرتي، والظلام يخيّم على الكون، أنتظر قدوم يوسف من عند الطبيب النفسي. نعم، لقد فوجئت مثلك بما حدث. في البداية أؤكد لك أننا لم نتبادل كلمة. كنت أبكي بصمت، وأنا أرثي لحالي، كان يوسف راقدًا على ظهره يتأمل السقف، وكأن هذه صارت مشكلة حياته الوحيدة. قلت له بصوت مختنق مكتوم:
"أنت في مشكلة حقيقية يا يوسف، وما دمت كذلك فأنا شريكتك. ما يحدث يهدد زواجنا من جذوره".
هذا ما قلته، ثم بتكرار الألم وهطول الدموع أكثر انقضّ عليّ النوم باسطًا عليّ نسماته الرحيمة. استيقظت في ساعة متأخرة، وكانت الشمس تتسرب من النافذة وتُغرق الحجرة في لجة من النور. كانت هناك ورقة مكتوبة بجواري كتبَ فيها:
"أنتِ على حق. سأذهب إلى طبيب نفسي بعد خروجي من العمل".
شعرتُ بسعادة وانتعاش وأنا أعدُ طعام الإفطار. تصرفه هذا يؤكد أنه يحبني، أو على الأقل يحترمني، ويحترم زواجنا هذا، وذلك شيء كنت أفتقده في زواجي الأول، ضمن أشياء أخرى بالطبع.
لكن الكآبة ظللتني مرة أخرى حين تذكرت لقائي بالأخوة الثلاثة، وقد اتسعت أعينهم من الرعب! سرت قشعريرة باردة في جسدي. هل من

الممكن أن يكون شخصًا مُبدِّلًا؟!

كنتُ متوترة وساعات الليل تنقضي وتنصرم. كنتُ أتوق إلى عودته. اتصلت به فكان هاتفه خارج نطاق الخدمة. لم أيئس. يحدث هذا كثيرًا. مع قدوم الليل كنت في قمة انتعاشي وأنا أغادر المطبخ بعد أن أنجزت ما يجب إنجازه كسيدة بيت مجتهدة.

***

مفكرتي العزيزة

مضت فترة طويلة على حديثي معكِ. فقد جرت مياه كثيرة تحت الجسر كما يقول الغربيون.

هل تذكرين تلك الليلة التي كنتُ أنتظر فيها عودة يوسف من زيارة الطبيب النفسي؟ حسنًا، لقد انتظرت حتى أصابني الانفعال بنوبة من البكاء العنيف، حتى إنني طلبت حضور والدتي للضرورة القصوى. كان من المفترض أن أنتظر حضورها، لكنّ خاطرًا جعلني أتعجل وأغادر المنزل. قبل أن أخطو إلى الخارج دوّى صوت ساعة الجدار المعلقة وهي تعلن عن السابعة مساءً. خطرَ لي أن السر كله يكمن في تلك المصحة. ارتديتُ ثيابي، وغادرت المنزل وقررت زيارة المبنى سريعًا. كان هذا خطأً قاتلًا. لماذا؟

أولًا: لأن الطقس كان سيئًا، حيث كانت الأمطار تهطل بغزارة، ومن حسن الحظ أني انتعلتُ حذاءً مرناً واقياً، فجعلني أتحرك بخفة النمر على الطريق الإسفلتي الزلق. لكِ أن تتخيلي أن الشوارع خالية تمامًا، إلا من أتوبيس كان يظهر في المحطة القريبة من المصحة، في السابعة والنصف مساءً في الموعد ذاته يوميًا.

ثانيًا: لأني سمعتُ وقع خطوات تتبعني. شعرت بخوف مبهم، فحثثت الخُطى إلى الأمام. للأسف كان الشارع خاليًا، ولم يكن هناك من أستنجد به، ثم قررت أن أواجه خوفي وأواجه صاحب الخطوات.

"من أنت؟ أفصح عن نفسك؟".

في الظلام بدا أحدهم وهو بخطوات واثقة فيها تؤدة وتصميم، وكان يمسك خنجرًا مشرشرًا مميزًا بمقبضه المزين والمكوّن من العاج فيما أحسب، ثم تحرّك حركة مذهلة إلى الأمام، بسرعة أكبر من قدرة عقلي على المتابعة، وفي لحظة وجدتُ عندي ووجهه مسربل بالعتمة، ومع ذلك فقد أطلقتُ صرخة عالية، وآخر ما كنتُ أتذكره هو وثوبه يسيران نحوي من العتمة، وخنجره المشرشر يلمع في ضوء مصابيح الشارع المعلقة، بينما وجه مهاجمي نجا من إضاءتها!

***

الفصل الثاني

-تفريغ صوتي لإحدى جلسات الدكتور مشاري جابر-

(لحظة صمت).

الدكتور مشاري: ما اسمك؟

يوسف: يوسف سلطان.

الدكتور مشاري: ممّ تشكو يا أستاذ يوسف؟

يوسف(يتنهد): أعتقد أنها أزمة هوية وجودية. ما الذي يجعلني أنا هو أنا يا دكتور؟ هل شخصيتي، طبائعي الشخصية، ذكرياتي، أم ماذا؟

(لحظة صمت).

الدكتور مشاري: أرى أنك شخّصتَ حالتك بامتياز، فلِمَ أتيت إليّ إذن؟

يوسف: لستُ متأكدًا من أن تشخيصي هو الصحيح. هذا أولًا.

الدكتور مشاري: وثانيًا؟

يوسف: مع احتمالية أن يكون تشخيصي صحيحًا، فسيظل العلاج مستعصيًا، لذا أتيتُ إلى هنا.

(صوت خربشة كتابة على ورق).

الدكتور مشاري: بعض القادمين إلى هنا يكونون بكامل حذرهم، فهم لا يريدون أن تُنزع عنهم الحُجُب التي تلفُّ ذواتهم. لكني أرى أنك تفعل ذلك في أول جلسة، وهذا يؤكد أنك ترغب فعلًا في العلاج.

(يوسف يضحك بمرارة).

يوسف: إذا لم أفعل ذلك سأخسر زواجي يا دكتور!

الدكتور مشاري (باهتمام بالغ): كيف؟

يوسف: زوجتي سعاد صممت على أن أذهب إلى طبيب نفسي، وإلا....

الدكتور مشاري: زوجة مثقفة وعاقلة إذن، ولا تحمل وجهة النظر التقليدية الخاصة بأن الشخص إذا ذهبَ إلى طبيب نفسي فهذا معناه أنه مجنون.

يوسف: المفارقة أني أعتقد أني مجنون فعلًا، أو على الأقل على حافة الجنون.

الدكتور مشاري(بإشفاق): لا يوجد مجنون....

يوسف (مقاطعًا بنفاذ صبر): ... يقول على نفسه أنه مجنون. أعلم يا دكتور.

الدكتور مشاري(بصرامة): تحلَّ ببعض التواضع يا أستاذ يوسف من فضلك. حين تأتي إليّ ضع ذكاءك وتحليلاتك خارج هذا الباب الذي عبرتَ من خلاله، هذا إذا كنتَ ترغب حقًا في العلاج.

يوسف(بحرج): أعتذر إليك.

الدكتور مشاري (بهدوء): لا عليك. والآن أخبرني عنك.

(بعد لحظة صمت).

يوسف: أعمل صحفيًا في إحدى الصحف، وبالتحديد في نسختها الرقمية على الإنترنت.

الدكتور مشاري: وما تخصصك في الكتابة الصحفية؟

يوسف: التحقيقات. وأحيانًا تجنح تحقيقاتي بخصوص عالم الخوارق والماورائيات.

الدكتور مشاري: هذه المواضيع تحقق نسبة قراءة عالية حسبما أعرف.

يوسف: ليس دائمًا.

(يوسف يضحك فجأة).

الدكتور مشاري: ما سبب ضحكك المفاجئ يا ثرى؟

يوسف: أمس كنت أتجادل مع زوجتي بخصوص ذلك الموضوع. المفارقة أنني كنتُ أخبرها عن شيء ما أنه خرافة يصدقها العجائز وكبار السن. المفارقة أني أقول هذا، وأنا أعمل في ذلك المجال تحديدًا.

الدكتور مشاري: أي شيء هذا؟

يوسف: خرافة المُبدِّل.

الدكتور مشاري: آه، إنها خرافة منتشرة فعلًا من مئات السنين. الجن الذين يأتون ويغيّرون المواليد الباكية بأخرى رصينة.

يوسف(يضحك): زوجتي تظن بأن لكل حكاية أصلها في الواقع، حتى لو غابت تحت طبقات من التراب الكثيف من المبالغات والأساطير.

الدكتور مشاري(مداعبًا): هل معنى ذلك أني أجلس مع مريض هو من صنيعة الجن؟

(الدكتور مشاري ويوسف يضحكان).

يوسف: بحسب كلام زوجتي، فأعتقد نعم.

(لحظة صمت).

يوسف: أثناء نومي أشعر فجأة بحضور أحد معي، حضور يشاركني أنفاسي، ويحدّق إليّ في ظهري، وكأنه يراقبني مراقبة لصيقة، تصل حتى العظم ذاته! ثم حين أفتح عينيّ بغتة وأستدير أجدها هناك، توجه نظراتها الحارقة إليّ.

الدكتور مشاري(بدهشة): زوجتك؟

يوسف: هذا صحيح. زوجتي. أشعر أنها تخاف مني يا دكتور. ربما هي تتساءل: إن كان من تزوجته هو يوسف فعلًا أم شخص آخر؟! لا أعرف.

(خربشة على الورق).

الدكتور مشاري: هل يؤلمك ذلك؟

يوسف (بعد برهة من التفكير): ليس بالضبط. علاقتي بها لا تسمح بأن أصاب بخيبة أمل، فزواجنا كان زواج صالونات. من حقها أن تشعر بالتوتر والقلق.

الدكتور مشاري: وأنت؟

يوسف: أنا ماذا؟

الدكتور مشاري: هل تشعر بالتوتر والقلق؟

يوسف(بتوتر): ولِمَ أشعر بشيء منهما؟

الدكتور مشاري: لأنك أتيتَ إلى هنا.

يوسف: أتيت إلى هنا لأن زوجتي....

الدكتور مشاري(مقاطعًا): للتو قلتَ بأنك تزوجتها بطريقة تقليدية، وأن الأمر لا يستأهل أن تنفّذ نصيحتها في القدوم إليّ.

يوسف (بتوتر أكثر): إلامَ ترمي يا دكتور مشاري؟

الدكتور مشاري: أرمي إلى أنك تشعر بما تشعر هي به، وهذا يعني أنك تحت ضغط شديد. هناك أمر مخيف يؤرقك. هل أنا على صواب؟

(فترة صمت قصيرة).

الدكتور مشاري: في رأيي الشخصي توجد حجرة خفية في عقل كل واحد منا، يخبئ فيها أكثر أسراره حلكة وخطورة. يمكنني أن أستشعر وجود هذه الحجرة الخفية في عقلك، من كلماتك المضطربة، وكأنك تعجز عن ترتيب أفكارك، وهذا شيء يضايقك، لأنه يشعرك بالنقص بشكل أو بآخر.

يوسف: ربما يعود الأمر إلى هذا التحقيق الذي يشغل عقلي وتفكيري. هل يمكنني أن أتكلم عنه بحرية؟

الدكتور مشاري (بلهجة مطمئنة): كما تحب. لا بدّ أنك تعلم بأنّ ما يجري بين الطبيب النفسي ومرضاه يظل في خزانة السرية المطلقة.

يوسف(بمرارة): من المفروض أن أشعر باطمئنان، لكن كلمة مريض تجعلني أتحسس مسدسي!

الدكتور مشاري(مطمئنًا): لا عليك، هي مجرد مسميات، ثم إن المرض النفسي ليس عيبًا. كلنا مرضى بشكل أو بآخر. أخبرني عن هذا التحقيق؟

يوسف: إنه متعلق بمصحة نفسية تحدث فيها أشياء مريبة، أو هذا ما يُقال لو أردتَ الدقة.

الدكتور مشاري: أشياء مثل ماذا؟

يوسف: البعض يقول بأن صرخات تدوّي في النصف الأخير من الليل، ويُرجعها البعض إلى الأشباح!

الدكتور مشاري: تقصد العفاريت؟

يوسف: بل أقصد كلمة "أشباح". أعرف أن الكلمة غربية الأصل، لكنها تعني أشباح المقتولين، وهو نفس التصور في الوجدان العربي، لكنهم بدلًا من أن يقولوا أشباحًا، تلك الكلمة التي لا يعرفونها، يقولون: عفاريت، والتي لها مدلول مختلف في القرآن، إذ يُقصد بها نوع من أنواع الجن، المشهور بالقوة كما ذكر القرآن الكريم.

الدكتور مشاري: يبدو أنك تعمقت جيدًا في هذا الموضوع!

يوسف: هذا ما أفعله دومًا في كل تحقيقاتي. في هذا التحقيق بالذات كان عليّ أن أقوم ببحث دقيق حول المستشفى وتاريخها. وجدتُ أن المبنى قديم جدًا يعود إلى أكثر من ثلاثمائة عام!

الدكتور مشاري (بدهشة كبيرة): أمعقول هذا؟

يوسف: نعم. البيت قديم جدًا، ويُقال إن أحدهم أتى منذ ثلاثة قرون أو أكثر وتظاهرَ بالصلاح وبالتقوى، فانخدع به أهل المنطقة السذّج، وظنّوه وليًا مباركًا، لكنه سيطرَ عليهم بتلك الصورة الزائفة، حتى شكا له أحد الآباء عن ابنه الذي لا يكف عن البكاء، فأقنعه ودفعه لكي يذهب بابنه إلى ذلك المبنى المهجور ويذبح دجاجة، وهو يتلو بعض التعاويذ والطلاسم الغامضة، ويترك ابنه من المغرب إلى العشاء هناك، ثم يحضره مرة أخرى، ويُقال إن الأب فعل ذلك، ليتفاجأ بأن ولده صار ساكنًا رزينًا لا يبكي، ومن هنا انطلقت التكهنات بأن الجن قد استبدلته.

الدكتور مشاري: وهل تصدق أنت هذا؟

(بعد لحظة صمت).

يوسف: ربما.

الدكتور مشاري: أمعقول هذا؟ رجل مثقف مثلك يصدق مثل هذه الخزعبلات؟

يوسف: أصدق بوجود الجن طبعًا.

الدكتور مشاري: لماذا تعدّها خرافات إذن؟ لقد كنت ترفضها منذ قليل، وتتهكم على زوجتك أنها تصدق شيئًا كهذا!

يوسف: لا تحكم عليّ الآن، ودعني أكون مرتبًا في سرد ما لديّ حتى تكون الصورة واضحة لك.

الدكتور مشاري: تفضّل.

يوسف: ذات صباح أخبروني أن رئيس القسم يطلب مقابلتي في مكتبه. رمقني من خلف نظارته الطبية للحظات ثم قال لي:

"هل سمعتَ عن مصحة السدر للأمراض النفسية والعصبية؟".

هل لاحظَ رئيس القسم تلك الرجفة التي أصابت جسدي حين ألقى سؤاله؟ لا أعتقد. المصحة معروفة بأنها غامضة ومخيفة، والكل يسيرون بجوارها بسرعة.

أجبته:

"ومن ذا الذي لا يعرفها؟".

نقرَ على سطح مكتبه، وقال:

"حسنًا، التحقيق الجديد متعلق بهذه المصحة".

أصارحك القول يا دكتور إنَّ قشعريرة غامضة سرت في جسدي حين سمعته يتحدث عنها. بداية فأنا أمرُّ بها يوميًا (وأنا أذهب إلى عملي سيرًا على الأقدام، كما هي عادتي منذ فترة طويلة، في عدم استخدام مركبتي الخاصة أو المواصلات العامة إلا للضرورة القصوى)، ولا بدَّ من التفاتة إلى المبنى المهيب الغامض المتشح بالسواد، والذي يجعلني أبتلع ريقي في رهبة على الرغم مني! حين تعرف سبب ذعرك وخوفك، فأنت تعرف أنه حين يزول السبب، يتوقف الخوف! لكن ماذا لو كان السبب غير معروف؟ بالتالي سيكون الخوف نفسه غير مبرر! وهذا يضيف بدوره طبقة جديدة من الخوف! لذا أرهفتُ أذنيَّ جيدًا لرئيس القسم وهو يواصل كلامه:

"كما أخبرتك إنَّ هذا المبنى قديم جدًا، وقد سُمّيت بمصحة السدر، بسبب أشجار السدر العملاقة القديمة التي تملأ المنطقة، وخاصة تلك التي تنتشر على الطريق الذي يؤدي إليها. منذ ثلاثين عامًا تقدَّم أحد الأطباء –واسمه الدكتور مراد-لشراء المبنى من الحكومة، التي وافقت بشرط أن يُحافظ على طراز بنائه الحالي بدون تغيير، بصفته مَعلَمًا أثريًا مهمًا، لكن في نفس الوقت هو غير جذّاب سياحيًا، فما هو وجه الإفادة من وجود مبنى قديم كهذا في مدينة صغيرة على الأطراف، لا يوجد فيها أي شيء آخر يدفع سائحًا إلى زيارتها؟ وعلى سبيل إمساك العصا من النصف وافقت الحكومة على تأجيره للرجل فحسب. قام هذا الطبيب بتحويلها إلى مصحة، أو مستشفى للأمراض النفسية والعصبية، وتخصصت في استقبال الحالات الميئوس منها، بحيث يقوم برعايتها والاهتمام بها، وجعلها في نطاق الاستقرار".

صمتَ رئيس القسم ريثما يأخذ نفسًا عميقًا، فقد كان من عادته التحدث بسرعة، وهو يلوح بيده، وبدا أنه قد بذل جهدًا كبيرًا، فقد تصبَّب بعض العرق على وجهه. تناولَ جرعة ماء كبيرة من زجاجة بجواره، ومسح شفتيه بمنديل ثم قال:

"بعد سنوات طويلة من إقامة المستشفى بدأت الشائعات في الظهور، والغريب أن هذه الشائعات ظهرت بعد بدأت المصحة تحقق نجاحاً ملحوظًا في علاج مرضاها! مجمل الشائعات تتكلم عن صراخ في قلب الليل! بعض أهالي المرضى يشكون من أن حالة نزلاء المصحة تسوء، يفقدون تواصلهم العقلي مع العالم الخارجي أكثر مما ينبغي، أكثر مما هم معتادون عليه للدقة، ومن ثمَّ فقد طالبوا بترحيل المرضى إلى مصحة أخرى، لكن هذا لم يفلح".

قلت باهتمام:

"لماذا؟".

أجابني:

"لأن المستشفى لا تنتمي إلى الحكومة. إنها مصحة خاصة تستقبل النزلاء وتعتني بهم مقابل مبالغ سنوية. أقارب المرضى يوقعون على

عقود لا تسمح بتسريح المرضى أنفسهم، إلا بإذن كتابي من الدكتور مراد ذاته".

قلت:

"لو كنتُ مكانهم لامتنعت عن دفع المبالغ المستحقة، وبالتالي سيتم تسريحهم ببساطة".

هزّ رأسه بشفقة، وكأنه يرثي لجهلي المطبق:

"بعضهم فعلوا ذلك، لكنهم فوجئوا بأنه قد تمّ الاحتفاظ بالمرضى بدون تسريحهم، وتمّ التكفل برعايتهم، وحين عاد أقارب المرضى إلى تفحص العقود وجدوا أنه لا يوجد بند في الأصل يقول بأنه في حالة عدم دفع المستحقات سيُسرّح المرضى. لكن أقارب المرضى افترضوا ضمنيًا أنهم لو لم يدفعوا المستحقات سيحدث إخلاء للمرضى".

حككتُ ذقني:

"عجيب!".

ابتسمَ وقال:

"الأعجب لم يأتِ بعد".

تعلقتْ عيناي به وهو يستطرد:

"حين فاحت رائحة المصحة العفنة، وبدأت السلطات تنتبه إلى الشائعات المنتشرة، أرسلوا عدة حملات تفتيشية مفاجئة إلى المستشفى للتفتيش والمعاينة وكتابة تقارير شفافة وصادقة عن واقعها. العجيب أنهم عادوا وهم يضربون كفًا بكف، فالمكان-على عكس الكآبة البادية عليه من الخارج-نظيف ومريح في الداخل، ويحتوي على كل أسباب الأمان والرعاية".

قلتُ بتوجس:

"وماذا سأفعل في مكان كهذا؟".

لوّح بيده:

"لا يوجد دخان من غير نار، فلنشكّ في الدكتور مراد ومستشفاه حتى يتبين العكس. لقد تواصلتُ مع هذا الأخير، وأخبرته أن السلطات مقتنعة بأنه يزاول عمله بأمانة بحسب ما رأته، لكن ماذا عن الرأي العام؟ أخبرته أنّ تحقيقًا نزيهًا يجريه صحفي مرموق لقادرٌ على أن يرسّخ تلك الصورة الطيبة عن مصحة السدر في أذهان العامة، وخاصة أن المُلحق الإلكتروني لصحيفتنا يحظى بمئات الآلاف من المتابعات، ولقد وافقَ الرجل مشكورًا على ذلك".

"فليكن".

قال بعد لحظة، ودهشة حائرة على وجهه:

"هل أنتَ موافق على هذا؟".

"ولِمَ لا أفعل؟ إنه مجرد عمل. أليس كذلك؟".

لوّح بيده مفسرًا سبب دهشته:

"عرضتُ هذا التحقيق على ثلاثة من زملائك، وكلهم رفضوا قالوا بأنهم يتهيّبون المكان، ولن يستطيعوا فعلها. فأن تتغلب على خوفك الغريزي من ذلك المكان وتوافق، فهذا شيء يُحسب لك".

ابتسمتُ وأنا أنهض، وقد أدركت المطلوب مني، ولم أكن أعرف أني ساذج كما يجب للسذاجة أن تكون.

الدكتور مشاري: لماذا؟

يوسف: لأنّ شيئًا غريبًا كان ينتظرني هناك.

(يوسف يضحك).

يوسف: هذا الشيء متعلق بحجرة خفية أيضًا يا دكتور. لكنها حجرة حقيقية، وليست مجازية في العقل!

***

(خربشة كتابة على الورق).

الدكتور مشاري: كيف؟ احكِ لي ما حدث؟

يوسف: ذهبت إلى المصحة، ووقفت مبهوتًا أمام المبنى الكئيب. كان كئيبًا بالفعل، جدرانه قديمة، بل مغرقة في القِدَم، مصنوعة من الصخور الضخمة، حتى بدت أشبه بقلعة صغيرة من قلاع العصور الوسطى، وكان التساؤل الذي يحرقني من الداخل: كيف يمكن لعاقل أن يتصور أن المرضى النفسيين يمكن أن يُشفوا في مكان كهذا؟ ثم تذكرت كلام رئيس القسم عن اختلاف ظاهر المكان عن باطنه، فقلت لنفسي: يجب ألا أتعجّل. دلفت إلى المكان، واستقبلتني رائحة عطرة، مع أضواء هادئة مريحة للعين، وتجمدت في مكاني مبهورًا من المكان الذي كان آية في النظافة وحسن السلوك، وكأن خلية نحل، لكن مع صمت محبب، وكأنهم يعرفون أن للمبنى خصوصية يجب احترامها. لكن....

(يوسف يصمت).

الدكتور مشاري: لكن ماذا؟

يوسف: لكن بالرغم من كل هذا، فقد أحسست بشيء مقبض في المكان! شيء خانق ويدفعني دفعًا إلى الهرب وكأنَّ شرًا عظيمًا يمكث فيه!

الدكتور مشاري: إحساس غريب فعلًا، لكن لا يوجد دليل عليه بعد.

يوسف: الدليل قادم بعد قليل، لو جاز أن أسميه بذلك. قابلت الدكتور مراد لأول مرة. إنه طويل القامة، مهيب الطلعة، وله لحية كثيفة تجعله أشبه براهب في محراب العلم أو الفلسفة.

(الدكتور مشاري يضحك ضحكة قصيرة).

يوسف: في مكتبه المكيّف أعدتُ كلام رئيس القسم عليه، والحق أنه لم يعلق بكلمة. فقط تركني أتكلم وأخرج ما بجعبتي. أقصد معظم ما بجعبتي، فلن أخبر الرجل عن قصة أنه لا يوجد دخان من غير نار هذه. ثم بعد أن انتهيت ساد صمت مريب غير محبب للنفس. ثم قال بهدوء:

"سأجعل الجميع يتعاونون معك، ولن أخبئ عنك شيئًا، مقابل أن أطلّع على مسودة المقال قبل أن تصدر".

كان طلبًا غير متوقع يا دكتور، ولم يكن لي أن أبتّ فيه. كلّمت رئيس القسم فأعلن موافقته، بل وأبلغه بذلك عبر الهاتف. هنا انفرجت شفتا الدكتور مراد عن ابتسامة صغيرة ونهضَ بحيوية، قائلًا:

"سأصحبك في تجوالك".

قلت رافعًا يدي:

"معذرة، ولكني أريد التحرك بحرية. يكفي أن تُعطي أوامرك إلى الموظفين هنا، وكل شيء سيسير على ما يرام".

رمقني بصمت، وأومأ برأسه. غادرَ مكتبه معي، وفي الممر جمعَ الممرضين، وأمرهم بأن تُنفذ كل طلباتي، فأنا صحفي نزيه أبحث عن الحقيقة، وهم لا يُخفون شيئًا. رحتُ أتجول في المكان هناك وهناك، وأسأل هذا وأسأل ذاك، بل وتجولت في العديد من الغرف، حيث المرضى يحدقون إلى السقف، أو يقوم بعضهم بالهمهمة بدون توقف، وكل منهم يضع يديه على كتفيه من الأمام. كانت حالات تبعث الحزن في نفس من يشاهدها، وتجعله يفكر جيدًا في هشاشة الإنسان وضعفه. في نهاية البحث لم أجد شيئًا. كنت أشعر بوجود شيء ما غير طبيعي،

انتبهَ إليه عقلي، لكن لم يدخل في دائرة وعيي بعد، لكن إحساسي فيما يبدو كان مخطئًا. غادرت المكان وأنا محبط، ولم أغفل عن رؤية ابتسامة الدكتور مراد المنتصرة. كنتُ قد سرت مسافة مائة متر تقريبًا حينما لمحت ظلًا يقترب مني في حذر، فاستدرت بتحفُّز، وهناك وجدت شابًا يتراجع إلى الخلف بفزع.

"أنا من موظفي المصحة يا أستاذ يوسف".

تراخت أعصابي المتحفزة، وانفرجت قبضتي المتكورة. سألته بخشونة:

"ماذا تريد؟".

"أريد أن أبريء ذمتي، وأريح ضميري".

نظرتُ إلى وجهه بتساؤل، لكن عقلي كان يصرخ فيّ: ألم تفهم بعد؟!

"المصحة يحدث فيها شيء شديد البشاعة يا أستاذ يوسف".

سألته:

"وما هو؟".

مالَ نحوي وقال بحذر متوجس، وعيناه تتلفتان حوله:

"يُقال بأن الدكتور مراد يُجري تجارب سريرية سرية على أمخاخ المرضى!".

***

(لحظة صمت).

الدكتور مشاري: تجارب على أمخاخ المرضى؟ أي كلام هذا؟ لم أسمع عن هذا من قبل!

يوسف: كان هذا سؤالي واستنكاري بالضبط، فكانت إجابته: " لأنه توجد في المصحة حجرة خفية صُنعتْ بحذق ومهارة، بحيث تختفي عن أنظار أي تفتيش عادي أو متفحص حتى! حجرة صُنعتْ بزوايا معينة، بحيث تمرُّ أمامها الأعين من دون أن تراها!".

كما لك أن تتخيل يا دكتور أني قد تراجعتُ بذهول، وبالطبع لم أصدقه وظننته يبالغ. لكن للحظة قلت في نفسي: هل يمكن أن يكون هذا هو الشيء الذي أربك عقلي؟

قال الرجل بعصبية:

"ألا تصدقني؟".

رمقتهُ بصمت، ثم قلت بحزم:

"لن أقبل بكلام مرسل على عواهنه. أريد دليلًا مصورًا".

تمتمَ بدهشة:

"دليلًا مصورًا؟".

ثم قال ببطء:

"لا أستطيع أن أعدك بشيء. فأنا أنقل إليك ما قيل".

الدكتور مشاري: عظيم. وهل أتى لك بالدليل؟

يوسف: ليس بعد.

الدكتور مشاري(مندهشًا): تجارب على أمخاخ مرضاه؟ هذا شطح في الخيال! لا يوجد شيء كهذا، ولو وُجد وسمعت به وزارة الصحة وتحققت منه فستقوم بشنق مراد هذا ومن معه في ميدان عام!

يوسف(بتوتر): دعني أخبرك بما حدث بعدها، والسبب الحقيقي دومي إليك. دعني أحدثك عن ذلك الحلم!

الدكتور مشاري(بتوتر): أي حلم؟

يوسف: لا أعرف إن كان حلمًا أم كابوسًا! منذ طفولتي وأنا أرى حلماً

واحدًا يتكرر يا دكتور. أسير في طريق طويل على جانبيه أشجار سدر كثيفة، ثم ينتهي بي الأمر إلى ذلك المبنى. لهذا كنت أصحو دومًا وأركض وأتوقف أمامه برهبة، غير فاهم لما يقتحم منامي هكذا في الفترة الأخيرة! المؤلم والمرعب في ذلك هو السؤال الذي يتردد في أعماقي كلما رأيته في منامي: من أنا حقيقة؟ هل أنا يوسف سلطان أم شخص آخر مختلف؟

الدكتور مشاري: عجيب! هذا إذن سبب حيرتك وشعورك باضطراب الهوية. أكمل.

يوسف: وحينما كلفني رئيس القسم بالتحقيق، وتجولت في المستشفى، رأيت ذات الحلم لكن مع تتمة له، حيث كنت أدخل المبنى تلك المرة، وهناك أعثر على الحجرة الخفية. حجرة غامضة تتجول فيها الظلال، وثمة همس غريب ينبعث منها، مع صوت واضح كان يخترق عقلي ويقول:

"العاصفة تقترب!".

(رنين جوّال).

يوسف: معذرة يا دكتور. سأردُّ على حماتي. ليست معتادة على الاتصال بي عبر الهاتف. لا بدّ أن الأمر جلل. مرحبًا يا أمي. ماذا؟

(خطوات مسرعة باضطراب).

الدكتور مشاري: ماذا حدثَ يا أستاذ يوسف؟

(باب ينفتح)

يوسف(بهلع): زوجتي طُعِنَت، وهي الآن بين الحياة والموت!

***

الفصل الثالث

-أجزاء من حوارات فاطمة -

حين رأيت سلمان لأول مرة وقد جاء ليخطب سعاد ابنتي فرحت للغاية يا سعدون، وقلت ستكون ست بيت مثل والدتها، ولن أقلق عليها بعد ذلك. لقد مارست ضغوطي عليها كأم تخشى على ابنتها وتتمنى لها الخير. وبعد طلاقها منه كان قلبي مُحطمًا مثلها، بل أكثر. ليس لأني أمها وقلقي أضعاف قلقها على مستقبلها فحسب، بل لأني أعتبر نفسي السبب في فشل زيجتها الأولى. لقد تصرفت مثل أي أم تخشى على ابنتها البوار، وتتمنى لها الأفضل، وإن الخبرة تسبق الشعور، وإن العقل يتغلب على العاطفة. ولكم كنت أشعر بالندم لأني ألححت عليها لمقابلة سلمان، لذا عندما أتى يوسف تركتها بدون ضغط. صحيح أنني كنت ألمّح أنه جيد لها كعريس، لكني التزمت الصمت، ولم أعبر الخطوط الحمراء. كنت أتقلّب على جمر بين دفعها للقبول بالعريس الجديد، وبين ترك الحرية لها في تقرير مصيرها. بعد زواجها من يوسف كان عليّ أن أعرف هل كان اختيارًا مناسبًا أم لا. جمعتنا الصالة، وأمامنا الفاكهة نأكل ونشاهد فيلمًا كوميديًا كما كنا نفعل قبل زيجتيها الأولى والثانية. سألتها بفم ممتلئ:

"لم تخبريني بعد. هل هو يُسعدكِ؟".

حدّقت إلى الفراغ وقالت:

"لا أدري".

ضربتها على كتفها برفق:

"أي كلام هذا؟ أسألكِ عن زوجك وهل هو يسعدك، هل هو جيد في معاملتك أم لا؟ وتقولين لي لا أعرف!".

هزت كتفيها:

"حتى الآن هو لطيف ومهذب، لكنه جامد المشاعر يا أماه، يشرد كثيرًا، ويحدّق من النافذة لساعات، حتى إنه لا يشعر بوجودي أصلًا!".

"لا بأس. الرجال ألغاز مغلقة يا بنيتي، ومن الأفضل أن نعطيهم الحرية لكي يظلوا هكذا بدون أن نشغل أنفسنا بفكّها!".

قالت ضاحكة:

"ما هذه الحكمة البليغة يا أماه؟! الرجال ألغاز؟ هه!".

طقطقتْ بلساني محذرة:

"لا تستهيني بكلامي. الرجل يحب مساحته الشخصية، يحب أن يشعر أحيانًا أنه طائر طليق يفعل ما يريد. بمعنى أدق: يظن أنه يفعل ما يريد. وما الضير إذا كان الزوج محبًا كريمًا يصرف على بيته ويحافظ على امرأته، أن يعيش هائمًا في تخيلاته هذه؟".

هزت سعاد كتفيها ورأسها مجددًا:

"كلام جميل يا أمي، ومع ذلك فأنا أشعر بأن الموضوع أكبر من ذلك".

***

ابنتك هذه لن تتعلم أبدًا يا أبا سعدون، ولن تهدأ حتى تُخرب بيتها بيديها! اتصلت بي وطلبت مني الحضور إلى بيتها. قالت لي وهي تنفجر في بكاء عجيب:

"إنه ليس من تزوجته يا أمي؟!".

ضربتُ كفيّ ببعضهما بعضاً في غيظ:

"تشعرينني بكلامك أنكِ تعرفينه جيداً يا حمقاء! إنكِ تزوجته بعد أن اقتنعتِ به، لكن هذا لا يعني أنكِ تعرفينه جيدًا. المرأة تأخذ وقتًا حتى

تعرف زوجها من خلال المعاملة والاحتكاك به وظهور معدن الرجل في المواقف الصعبة. غير ذلك فهو هراء".

قالت وهي تهز رأسها:

"لم تفهميني يا أمي! أقصد أنه ليس من ظننته. لا أعرف كيف أشرح لكِ الأمر".

وصمتت برهة، ثم قالت:

"أشعر أحيانًا أنه شخص حنون وطيب ومتفهم، لكن مع لمحة من الهدوء الذي يجعلني أتصور أنه لا يغضب أو يثور. أحيانًا أخرى أشعر أنه على جزيرة بعيدة، شاردٌ في الملكوت، لا يوجد معي إلا جسده وحسب. أمّا الأحايين الأخرى والمرعبة بالنسبة لي فتأتي حين أشعر أنه شخص مختلف كلياً!".

قلتُ بضيق:

"أنت تخرّفين. أخبرتكِ من قبل إنّ الرجال إذا كنتِ تريدنهم لغزًا فعليكِ أن تتركيهم هكذا بدون تدخُّل منكِ. دعيهم على ما هم عليه حتى تسير السفينة، وتمضي الحياة".

ابتسمت سعاد، وبدت معجبة بحكمتي المقطرة هذه:

"أهكذا كنتِ تسايرين أبي؟".

قلتُ بدون أن أرتبك ولو لحظة:

"أبوكِ سيد الرجال، ولا يوجد مثيل له".

ضحكت الخبيثة؛ فلم أعلق على قولها.

***

لا تصرخ فيّ هكذا يا أبا سعدون، وحاول أن تفهم ما حدث أولًا. كلّمتني ابنتك عبرَ الهاتف وأخبرتني أنها تحتاج رؤيتي لشيء في غاية الأهمية. قلتُ لها بأن تهدأ وألا تشغل بالها بزوجها وبالأشياء السخيفة بشأنه، وعندما انفجرت في البكاء، قلتُ بحزم:

"أنا في الطريق إليكِ".

لبستُ عباءتي وحملت حافظة نقودي وانطلقت إليها. كانت ساعة متأخرة وكنتَ أنت في زفاف لابن صديقك أحمد، وكان سعدون في النادي، أما موسى فهو غير موجود كالعادة، وكان عقلي مشتتًا متوقفًا، ولا أعرف ماذا أفعل. كل ما تبادرَ إلى ذهني لحظتها أن تجدني ابنتي سريعًا عندها. من حسن الحظ أن الأمر يستلزم عشر دقائق فحسب من السير. كانت الشمس قد غربت من ساعتين على الأقل، وبسبب الأمطار المنهمرة خلت الشوارع من المارة، لكني لم أكترث. تعرف جنوني بالمطر، وعشقي للسير تحته، حتى إن كنتَ تقول دومًا وأنت تضحك بأني سأصاب بالتهاب رئوي ذات مرة بسبب عشقي للسير تحت المطر!

وأثناء سيري يا أبا سعدون لمحت رجلًا يغيب في العتمة، وللحظة بدا لي (من ناحية ظهره) مألوفًا. انخلعَ قلبي من مكانه حين رأيتُ ذلك الجسد المسجّى تحت المطر. اقتربتُ منه بخطوات مذعورة، وانحنيت وإذا بها ابنتي الحبيبة سعاد! كانت تئن، وهمست:

"أمي!".

كان هناك ثقب قبيح في صدرها، والدم ينزّ منه ويختلط بماء المطر، ويسيل على الطريق الإسفلتي. وهنا وجدت نفسي أصرخ من أعماق قلبي. كانت صرختي من القوة بحيث أن بعض السكّان فتحوا نوافذ بيوتهم في دهشة، ثم حين رأوني هبّوا لنجدتي. لا أعرف كيف سارت الأمور بسرعة بالغة، لكني وجدت نفسي في المستشفى بين أيدي الأطباء. وبعد أن اتصلتُ بك وبسعدون، اتصلتُ بزوجها يوسف، والذي

بدا أنه مندهش من اتصالي الذي قلّما أقوم به. الحقُّ أن الفتى أتى قبلك، فقد وجدته يظهر أمامي، والمطر يغرق ثيابه وهو يقول بهلع لم ألاحظه عليه من قبل:

"ماذا حدث لسعاد؟ هل هي بخير؟ أين هي؟".

حكيث له ما حدث بكلمات لاهثة مقتضبة خارجة من جوفي ملتهبة كالنار، ومغموسة بالحزن، لكن الطبيب أتى وبرّد قلبينا قائلاً إنها قد تجاوزت مرحلة الخطر، فاهدأ يا أبا سعدون وقرّ عينًا.

***

لا أعرف ماذا أفعل بخصوص ابنتي يا سليمة. سعاد النضرة الجميلة انخفضَ وزنها عن السابق، وغدا وجهها النضر الجميل شاحبًا. قضت أسبوعين في المستشفى، وكنا برفقتها طبقًا حتى صارت على ما يرام. كانت قد حكت لنا ما حدث، وآخر ما تتذكره الخنجر ذا النصل المشرشر والمقبض المزخرف، وصاحبه الوغد يثبُ نحوها ليغرسه في صدرها! كنتُ أريد أن آخذها إلى منزلي، لكن يوسف رفض، وقال إنه سيعتني بها جيدًا. في تلك اللحظة وجدتُ سعاد تتشبث بي مرتعبة وهي تقول:

"لا تتركيني لوحدي يا أمي".

في حجرتها في المستشفى كنتُ أجلس أنا وأبوها وأخوها وزوجها. لا غريب بيننا، فمن أي شيء تخاف بالضبط؟

وهنا أخبرتهم أني سأكون بصحبتها، فلن أتركها في ظرف كهذا، فلم يعترض زوجها. كنت أقوم بكل ما تفعله أمي في مكاني، من رعاية واهتمام وحب، بل قُولي الكثير من الحب، لكن هذا لم يغيّر الكثير من حالة سعاد. فما زالت شاحبة وشاردة. نسيتُ أن أخبركِ إنّ الشرطة حاولت أن تعرف منها ماذا حدث، فقالت إنها تتذكر أنها كانت تسير في الشارع، وأن ثمة رجل قد خرج عليها وهو يمسك بخنجر ذي نصل مشرشر. حين ضغطوا عيها أكثر لمعرفة أي شيء عنه، أي شيء مميز من ملامح وجهه، انفجرت في بكاء عنيف!

كنتُ أتأمل وجهها وهي نائمة، ثم ألمح وجهها وهو يتقلص كأنّ ثمة شيئًا مرعبًا يطاردها في نومها! أربّتُ برفق على وجنتيها حتى تستيقظ.

كلمتُ أبا سعدون بضرورة أن نجلب شيخًا يعرف ما بها، فزجرني:

"هل جننتِ يا امرأة؟ هل تصدقين هذه الخرافات؟".

قلت بعناد:

"بالطبع أصدقها. هل تعرف ابنة أختي رنا؟ كانت تعاني من حالة شبيهة، وأتوا لها بالشيخ جاسم، وشُفيت المسكينة مما تعانيه".

قال أبو سعدون بضيق صدر:

"إنه نصّاب يا امرأة، أعرفه جيداً يسترزق من الوهم الذي يبيعه. هناك شيوخ يستخدمون القرآن وهم صالحون، لكن أين تجدينهم حتى تجلبيهم؟".

سألته بعصبية:

"هل سأتفرج على ابنتي حتى تهلك إذن؟".

قال بعد لحظة:

"إنها سليمة جسديًا. الأطباء يؤكدون أن الجرح يلتئم بسرعة، وهي تتحسن بسرعة. الأمر نفسي وليس جسديًا، لذا فقد قررت أمرًا، وأرجو أن تتقبليه برحابة صدر. لقد أخبرتني من قبل أن يوسف ذهبَ إلى طبيب نفسي".

قلتُ بحذر:

"نعم، في نفس اليوم المشؤوم الذي طُعنتْ فيه سعاد".

"لقد صدّق يوسف روايتكِ، وقال بأنه ذهبَ إلى طبيب نفسي يُدعى مشاري جابر. أخبرته بأن نذهب بسعاد إليه، فعارضَ ذلك، وقال بأن سمعة الرجل الطبية جيدة، لكن يوسف على الصعيد الشخصي لم يتحسن، أو بمعنى أدق أفادَ أنه لم يتمكن من قضاء الجلسة كاملة عند الطبيب، فقد اتصلتِ به لحظتها".

ضربتُ صدري بهلع:

"هل جُنّتْ ابنتكَ يا رجل حتى تذهب بها إلى طبيب نفسي؟!".

"الطب النفسي ليس عارًا يا أم سعدون. واضح لكل ذي عينين أن ابنتكِ خائفة من شيء ما مرعب، وهذا الشيء لن نعرفه إلا من خلال تنويمها مغناطيسيًا".

"تنويمها مغناطيسيًا؟ ماذا تقول؟".

قال بصرامة قبل أن يغادر:

"انتهى الأمر، فلا أريد جدالًا".

وتركني أولول على ابنتي، التي فقدت عقلها!

ما الذي حدثَ لابنتي المسكينة يا سليمة؟

***

أشعر بحيرة بالغة يا سعاد، ولا أعرف ماذا أفعل يا بنيّتي؟ أكلمكِ الآن وأنتِ نائمة، ولا أجرؤ على أن أخبرك بالحقيقة. ربما لا تعرفين أني كنتُ أراقبكِ بعينيّ صقر، وقلبي يتمزق عليكِ من القلق. ماذا جرى لكِ؟ كنت أتساءل: ما هو الشيء البشع الذي حدث لكِ، ذلك الشيء المرعب الذي يجعلكِ في هذه الحالة؟ هل مسّكِ جن؟ هل عُمِلَ لكِ عمل؟ لا أستبعد هذا!

حين أخبركِ والدكِ بأنه قد حجز لكِ موعداً عند ذلك الطبيب المدعو مشاري جابر تراجعتِ إلى الخلف بذعر، ولم تهدأ ملامح وجهك إلا حين أخذتكِ في حضني. وأمس كانت تنتظرني مفاجأة قاسية.

كنتُ أقوم بتنظيف الدولاب في حجرة نومكِ. زوجكِ في العمل، وأنتِ نائمة كما هي عادتكِ، والهمُّ يركب ملامح وجهي، وأنا أقوم بالكنس والتنظيف. كنت أعرف أن الدولاب مكون من ثلاث قطع فوق بعضها بعضاً، لكني انتبهتُ إلى أنّ ثمة درجًا في الأسفل. ساورني الفضول. لم أره من قبل، ولم تحدثيني عنه سابقاً، خلال أيّ حديث من أحاديثنا يا بنيتي. مددتُ يديّ وفتحته بحذر، وشهقتُ برعب عندما رأيتُ ما فيه، حتى خلتُ أن روحي ستغادر جسدي من فرط المفاجأة!

الآن عرفتُ الحقيقة، ويا ليتني ما عرفتها!

***

الفصل الرابع

-تسجيل خاص يسجل فيه الدكتور مشاري راشد بعضًا من تفاصيل حياته-

كنتُ أجلس في نهاية ذلك اليوم مُرهقًا من ازدحام العيادة بالمرضى، حين أتاني الممرض وقال وهو ينظر في دفتره:

"تبقّى آخر مريض يا دكتور".

تثاءبت وأنا ألوّح بيدي:

"دعه يدخل يا منصور".

غادرَ الممرض، بينما كنتُ أشعر برغبة عارمة في النوم. هذا هو روتين يومي التقليدي: الذهاب إلى العيادة في الساعة العاشرة صباحًا، ثم استقبال الوافدين بدءاً من الحادية عشرة صباحًا. وخلال ثماني ساعات أكون قد تحولت من رجل نشيط مشرق إلى آخر مستهلك متهالك يكاد يغمض عينيه بالكاد، مثلما كنت أفعل في تلك اللحظة. دخلَ المريض وتأملته من خلف جفنين مفتوحين بالكاد. إنه شاب متوسط الطول، ذو ملامح مفرطة في "المألوف"، إلا من شارب رفيع على شفتيه بدا غير مناسب له بالمرة، حتى خلتُ أني لو مددت يدي لانتزعته ببساطة!

جلسَ وهو يفرك يديه، بطريقة تبعث على التأمل، فهي ليست طريقة شخص متوتر مُصاب بالرهبة مما هو مُقدم عليه، بل حركة رتيبة هادئة، وكأنه يقوم بتدليك عضلات يديه فحسب!

تأمّلت اسمه على البطاقة المقدمة من المساعد، والتي يضع فيها اسم المريض:

"يوسف سلطان؟".

أومأ برأسه دونما أية كلمة أخرى، لكنها كافية لي.

جلستُ قبالته، وحرصتُ على أن يسترخي، وأنا أمسك بدفتري، بينما أقوم بتسجيل الجلسة على شريط تسجيل تقليدي، وربما بعض الأطباء النفسيين الآخرين يستخدمون وسائل أكثر حداثة تناسب تطور التكنولوجيا. أعترفُ بأني كلاسيكي في هذه النقطة، في تلك المهنة التي أراها لا تتطور بشكل متناسب مع تطور التكنولوجيا، لأن الإنسان سيظل هو الإنسان.

الحق أني اخترتُ هذه المهنة تحديدًا لأن عندي فضول لا يخمد لفهم النفس البشرية وتقلّباتها، وما يحكمها من مشاعر، مثل: الغضب والكراهية والحب والسلام والتسامح والنسيان، إلخ.

باختصار: لديّ فضول لا ينضب لفهم ذلك اللغز المسمى: الإنسان!

كنتُ أتخيّلها حالة عادية من تلك الحالات التي تفد دومًا إلى عيادتي. لكنها فعلًا أغرب حالة. الرجل يعاني من حالة عدم معرفة لذاته، بمعنى أدق: ليس متيقنًا بأنه هوا متزوج حديثًا من فتاة طيبة، لكنها تطلب منه بإلحاح أن يحقق في احتمالية ألا يكون هو من يدّعي!

أمر غريب، أليس كذلك؟

تحت ضغطها-وضغط النساء لا يقاوم، وإن كان ينتهي بكارثة في بعض الأحيان-وافقَ على المجيء.

كان يتكلم عن عمله كصحفي، وعن ذلك التحقيق بخصوص مصحة السدر للأمراض النفسية والعصبية. ما لفتَ نظري أنه كان يرتجف وهو يتكلم عن تلك المصحة، وحكى إنه كلما مرّ بجوارها تطلّع إليها برهبة. لم أخبره بأن ما يحدث معي مشابه لما يحدث معه، لكن مختلف قليلًا، فأنا

لا أسلك طريقًا يؤدي إليها أو حتى يمرُّ بجوارها. وأين ذهبت الشوارع الأخرى؟ صحيح أن ذلك يكون مرهقًا في بعض الأحايين، لكن لا بأس. لكن ما أذهلني حقًا هي نقطة الحلم الذي يأتيه مرارًا وتكرارًا. من حسن الحظ أنه كان يتكلم بشرود محدقًا إلى الفراغ، بدون أن ينتبه إلى وجهي الممتقع! أنا أرى نفس الحلم أيضًا! أسير في ذلك الطريق الذي على جانبيه تنتصب أشجار السدر، حتى ينتهي بي المطاف إلى مبنى المصحة الكئيب. وهناك أسمع ذلك الهمس يناديني. بخلاف يوسف أدخلُ بالفعل. أسير في الممرات الخالية، والصمت الرهيب يعمُّ، حتى يُخيَّل إليَّ أنَّ له صوتًا. ثم أسمع من يهمس في أذني ساخرًا:

"البعض يظنون أن حجرات المرضى تبلغ تسعاً وثلاثين حجرة. الحق أنهم مخطئون! إنها أربعون!".

في تلك اللحظة تتبدّى لي من بين الحجرات حجرة مختلفة، ذات باب يختلف عن لون باقي الأبواب الموحد. الهمس يعلو منها، مؤكدًا أن صاحب الهمس نفسه بداخلها. الفضول ينتابني حتى وأنا أحلم، أتطلع إلى رؤيته، ومعرفة من هو. أدفع الباب برفق، ثم فجأة يندفع من بين العتمة وجه غير محدد المعالم، إلا من عينين مشتعلتين نارًا، وصرخة تدوّي في الفراغ، وطبيعي أن أستيقظ بعدها وأنا أتصبب عرقًا!

ما احتمالية أن تتشابه الأحلام إلا من بعض الاختلافات الطفيفة؟

أكاد أفقد عقلي!

***

في حفلة لطيفة قابلتُ الدكتور مراد لأول مرة. عرفته من صورته التي رأيتها على الإنترنت، فقد كنتُ أبحث عنه بعد كلام يوسف سلطان عنه. كان طويل القامة، وبدا لي من ذلك الطراز المسيطر الذي لا تفوته شاردة أو واردة.

بعد التعارف قلتُ له:

"سمعتُ عن الإنجاز الكبير الذي حققتهُ يا دكتور في مصحّتك. يُشار إلى المصحّة اليوم بكثير من الاحترام".

احمرّت وجنتاه من الفخر، وهو يومئ برأسه:

"أشكرك".

تابعتُ هجومي الناعم:

"لكن البعض ينفخون في النار، ويتكلمون عن أشياء غريبة تحدث فيها. طبعًا أنا لا أصدقهم، فلا تُرمى بالأحجار إلا الثمار الناضجة".

راقبتُ بتمعن وجهه الذي احتقن، وقال باقتضاب:

"بالضبط".

أحنى رأسه على سبيل التحية، ففعلتُ المثل، وانصرفَ. الرجل يُخفي شيئًا مريبًا!

***

عدتُ إلى منزلي وأنا أشعر باضطراب. الدكتور مراد يكذب. فلماذا؟ ولو كان يكذب فلِمَ أنا مهتم بذلك أصلًا؟ لأن الأمر متعلق بالمصحة التي يرهبها الكثيرون-وأنا منهم-لسبب غامض! كنتُ أتوقع قدوم يوسف مرة أخرى لإكمال الجلسة غير المكتملة، وإن كان اهتمامي به-وهذا خطأ مهني، لكننا بشر-سيغدو شخصيًا، لكني كنت مخطئًا، فلم يأتِ بمفرده هذه المرة. كان أبوها قد اتّصل من قبل طالبًا الحضور، وشرح لي بأنه يريد إجراء جلسة تنويم مغناطيسي لابنته، فرحبتُ بالأمر بشرط أن أعرف ملابسات الموضوع، فوافقَ بعد تردد. وفي الموعد المحدد أتوا. نظرتُ إلى يوسف، حيث كان يقف بجوار زوجته سعاد وحماته فاطمة

وزوجها وشقيق زوجته سعدون. كان الموقف غريبًا، لكن جلسة تنويم مغناطيسي قادرة بالفعل على سبر اللغز بقدر المستطاع، شريطة ألا يضع أحد أمامها العراقيل. التنويم المغناطيسي بسبب الأفلام يعطي صورة مبالغ فيها عما يمكن أن يقدمه، لكن الواقع أن الشخص الذي يخضع إلى التنويم المغناطيسي يكاد يكون من المستحيل أن يستجيب إلى شيء يرفضه أو غير مقتنع به. أي أن شرط حدوث تقدم في تلك العملية هو اقتناع المتقدم بالتجربة. كانت سعاد تريد أن تتحرر من ذلك العبء، لكن في نفس الوقت هي خائفة مما يمكن أن تكتشفه! هذه الحالة من التضاد النفسي بداخلها تسببت في حالة شحوب لوجهها وهزال لجسدها. قلت بحزم:

"بما أنكم مصرون على حضور الجلسة فأرجو أن تتجمعوا في هذا الركن...".

وأشرت إلى ناحية من حجرة المكتب الواسع.

".. ولا أريد أن أسمع أية تعليقات أو أسئلة أو أحاديث جانبية. مفهوم".

أومؤوا برؤوسهم. وجُهث انتباهي إلى سعاد الراقدة أمامي والتوتر يحفر بإزميله على كل بوصة من وجهها. أي شيء مخيف تهربين منه؟

هذا ما دار في ذهني، وأنا أقوم بتشغيل موسيقى هادئة مرخية للأعصاب، ثم أخرجت من درج مكتبي قلادتي المفضلة المصنوعة يدويًا، والتي صنعتها ابنتي نادية خصيصًا لي، كهدية عيد ميلادي، ورحت أحركها بشكل منتظم يمينًا ويسارًا أمام عينيها. بعد برهة بدأت تغيب في عوالم النوم.

"استمعي إليّ جيدًا يا سعاد. أنتِ الآن في اليوم الذي تهطل فيه الأمطار، اليوم الذي طُعنتِ فيه. هل تتذكرينه؟ كان منذ ثلاثة أسابيع".

قالت بصوت منغم هادئ:

"أتذكره".

"ما الذي جعلكِ تتركين المنزل في تلك الساعة الصعبة من رداءة الجو، وحيث كان من المفترض أن تنتظري قدوم والدتكِ؟".

بعد برهة من الوقت قالت بلهجة شابها بعض التوتر:

"أردتُ رؤية المصحة عن قرب".

ابتلعت ريقي بتوتر. المصحة مرة أخرى؟

بعثت أكبر قدر ممكن من الهدوء والثقة في صوتي، وأنا أسألها:

"ولماذا فعلتِ هذا؟".

قالت ونبرة التوتر تزيد:

"لأنها المبتدأ والمنتهى".

كلامها الغامض جعلَ الدم يغلي في عروقي. بشكلٍ ما أنا أدرك أنها على حق ولا أعرف لماذا؟

"أخبريني بما رأيتهِ بعد أن غادرتِ المنزل؟".

بعد فترة لا بأس بها من الصمت قالت:

"انتعلت حذائي، وسرتُ على الطريق الإسفلتي، وفجأة أدركت أن ثمة من يتتبعني".

اعتدلَ يوسف في توتر، بينما اشرأبّ أبوها بعنقه إلى الأمام، بينما تابع سعدون ما أفعله باهتمام بالغ، أما أمها فكانت متوترة بشكل غامض.

سألتُ برفق:

"وماذا فعلتِ؟ هل هربتِ منه؟".

"لم يكن لديّ وقت لفعل ذلك. كان يمسك بخنجر مشرشر ذي مقبض

مزخرف، ووجهه غائب في الظلام. لحظة، فثمة شيء ما يحدث في وجهه! يا للهول! أنا خائفة... أنا خاا... اااا... ئفة!".

كان صوتها متحشرجًا، لكني قلتُ بالهدوء ذاته:

" لن يؤذيكِ يا سعاد. لقد طعنكِ بخنجره وانتهى الأمر، وقد تعافيتِ وبرأتِ من جرحك".

قالت وهي تصرخ:

"أنتَ مخطئ. أنا لم أبرأ بعد. وكيف أبرأ وأنا أحدق الآن إلى عينيه الفضيتين؟".

***

الفصل الخامس
- من مذكرات سعاد الخاصة-

مفكرتي العزيزة

نسيتُ أن أخبركِ أني أحدثكِ الآن، وأنا في حجرة في أحد المستشفيات. حالتي الصحية في تحسُّن. يمكنني-على الأقل-أن أمسك بالقلم وأستطيع الكتابة. حين أفقتُ من غيبوبتي القصيرة، وجدت الضمادات تغطي صدري، حيث كان من الممكن أن تأتي ضربة الخنجر في قلبي، لولا أنها انحرفت قليلًا. حين أستعيد الذكريات التي سبقت ذلك تسري في جسدي قشعريرة باردة.

كان ذلك الشخص المجهول يقترب مني، ويحمل خنجره المشرشر. تلفتُّ حولي، لكني لم أجد أحدًا. تبًا! فكَّرتُ في أن أركض، لكن مهما بلغت قوتي، فلن أستطيع الإفلات من قبضته. لكن لم يكن أمامي سوى ذلك. لكنه لم يترك لي الفرصة ذلك الوغد، فما إن هممتُ بذلك حتى وجدتهُ يثب إلى جانبي وينقضّ عليّ غارسًا خنجره في صدري، وبقدر المستطاع انحرفتُ يسارًا. لوهلةٍ لم أصدق أن يحدث هذا لي من دون الناس. قلتُ لنفسي وأنا أسقط أرضًا، حيث غطى الذهول وعدم التصديق على لون الدم، ووجع الألم: هل يحدث هذا لي حقًا؟ ثم غبتُ في ظلام مطبق. وحين استيقظتُ من ذلك الظلام بدأت الموجودات تتجسد أمامي، وتتخذ أبعادها الأربعة المعروفة. كانت الحجرة غاصّة بالناس، بوالديّ، بشقيقيّ، وكان هناك يوسف الذي بدا من انتفاخ عينيه، ومن ذلك السواد الموجود أسفلهما أنه قضى وقتًا عصيبًا. سألتُ ذلك السؤال الخالد:

"أين أنا؟".

كانَ سؤالًا سخيفًا في ذات الوقت، فبديهي أني في مستشفى. لكنها البلبلة التي تصيب العقل، وهي تشبه ما يحدث للبعض حين يصحون فيضيّعون الاتجاهات، ولا يعرفون أسماءهم، بل ويتساءلون بحيرة عن كينونتهم!

بعدها فهمتُ ما حدث. لقد رأتني أمي وأنا مضرجة بدمي. بعد أن هدأت أنفاسي أتى السؤال الذي كنتُ أتوقعه:

"من فعل هذا بكِ؟".

قلتُ وأنا أحدّق إلى السقف:

"لا أتذكر وجهه".

انتفضَ أبي من التوتر، بينما اعتدلَ يوسف في جلسته. تمتمَ:

"ألا تذكرين وجهه؟".

"كان متوارياً في العتمة".

تحرّك سعدون أخي بعصبية وغضبُ الدنيا على وجهه، ولا ألومه على ذلك في الواقع، لكن أمي وأبي حاولا تهدئته، برغم صدمتهما وغضبهما الذي تبدّى واضحاً على وجهيهما. قال أبي بحزم:

"سنعرف من هو".

وجدتُني أقول بتلقائية:

"لا أريد معرفة من هو".

قلتُها كمَن ألقت قنبلة في المكان، وتفجرت بكامل قوتها!

دمدمَ سعدون:

"ما معنى هذا الكلام؟".

قلتُ لنفسي: ما الذي تقولينه؟ لكن كنتُ صادقة فيما قلته. بالفعل لا

أريد معرفة من هو، وكأن كشفه سيجرحني ويؤلمني.

***

مفكرتي العزيزة

تركتُ المستشفى وعدت إلى المنزل.

"أنرتِ الدار. لقد أقلقتِني عليكِ".

قالها لي يوسف، وكأن الأمر بيدي أن يقوم مخبول بطعني! كنّا قد عدنا إلى منزلنا بصحبة والدتي، التي أصررتْ على أن ترافقني. كان من المفترض أن أكون سعيدة بقلقهِ، فعلى الأقل بدأ قناعه الصخري في التشقق. (أول الغيث قطرة)، وكلامه هذا كان أشبه بقطرة تبشر بقرب هطول المطر!

في ظروف أخرى كنتُ أقول إنها علامة جيدة على دخول علاقتنا من علاقة الزواج العادية، إلى علاقة فيها اهتمام وحب.

لكني أشعر بحاجز سميك بيني وبينه. كنتُ أشعر بالخوف منه لسبب مجهول. وفي النوم يتضاعف الرعب. كنتُ أسير في ذلك الشارع المألوف والذي تنبت على جانبيه أشجار السدر العملاقة العتيقة، وكنت ألهث وأركض وكأنّ عندي ميعادًا لا بدّ لي من اللحاق به. ثم أتوقف أمام تلك المصحة الكئيبة، بجدرانها الكالحة، وبتلك اللافتة الموجودة عليها. ثم ينفتح الباب، ويطل منه ظل غامض عملاق يلتهمني وسط صراخي، ثم أستيقظ وأتصبب عرقًا!

كم من ليالٍ كنتُ أستيقظ فيها، أحدّق في العتمة، وعلى جانب السرير الآخر كانت ترقد أمي تغط في نوم عميق، بدون أن تشعر ببكائي الخائف. يوسف أصرّ على النوم في حجرة الضيوف، وحسنًا ما فعل، فالحق أني لا أطيق وجوده معي في المكان نفسه! ذلك الشعور الخانق القابض على أنفاسي بقوة الصخر يعتصرني، ويجعلني أرغب في السير في صحراء خالية باردة وأصرخ بكل ما أوتيت من قوة!

ثمة شيء ما قد حدث لا أجد له تفسيرًا. أمي تغيرت معاملتها مع يوسف. في البداية ومنذ خطبتنا وزواجنا كانت تتعامل معه كأنه أحد ولديها سعدون وموسى، لكنها الآن تتعامل معه بحذر بالغ، بل ووجدتُها ذات مرة تتلصص عليه!

قلت بضيق بصوت هامس، وأنا أقف خلف ظهرها:

"ماذا تفعلين يا أمي؟"

تمتمتْ بحدة:

"اصمتي!".

راقبتُها في دهشة من تصرفها الغريب هذا. كان يوسف في حجرة مكتبه يتحدث عبر هاتفه، وبدا أن أمي مهتمة بسماع كل كلمة يقولها. لم أحتمل. أمسكتها من ذراعها وجذبتُها إلى حجرة النوم. تمتمتْ بضيق:

"ما معنى هذا التصرف يا أمي؟".

قالت وهي تلوّح بيدها:

"أفعل هذا من أجلكِ يا حمقاء. من أجل أمانك وسلامتك".

قلت بدهشة:

"أمني وسلامتي في التلصص على زوجي وانتهاك خصوصيته؟".

لوحتْ بيدها مرة أخرى:

"أنتِ لا تعلمين شيئًا".

عقدتُ ساعديّ أمام صدري وقلت:

"أعلميني إذن".

بدت عليها الحيرة وكأنها لا تعرف ماذا تقول، أو ما الذي يجب أن تقوله. قلت بتوجس:

"هل تخفين عني شيئًا يا أماه؟".

ابتسمت ابتسامة صفراء:

"وما الذي يمكن أن أخفيه عنكِ يا حبيبتي؟".

حينها أدركت أن أمي تخفي عني سرًا كبيرًا.

***

مفكرتي العزيزة

حدثَ اليوم شيء أثار رعبي. قام والدي بزيارتنا وليطمئن على أحوالي. تبادل عدة دعابات كعادته مع أمي ثم طلبَ منها فنجان قهوة سادة، حيث إنه-حرفيًا-لا يشرب القهوة إلا من يديه هو أو من يديّ أمي. حين غابت أميّ عن أبصارنا قال ملتفتا إليّ:

"اسمعيني جيدًا يا بنيّتي. لا يوجد حل أمامنا سوى التنويم المغناطيسي لحالتك".

قلتُ بخوف غريزي وأنا أطلق صرخة قصيرة:

"لا!".

نظر إليّ بدهشة، ثم قال بحيرة:

"ولماذا؟".

كررت:

"تنويم مغناطيسي لا".

قال بحدة:

"هل هو رفض من أجل الرفض. أخبريني سبب الرفض هذا".

قلتُ بحيرة:

"لا أعرف لماذا أرفض! لكن لا".

احتواني بين ذارعيه، فبثَّ فيّ شيئًا من الأمان:

" هذا لمصلحتكِ يا بنيّتي. لقد شحب وجهكِ حتى صرتِ أشبه بمصاصي الدماء الذين نراهم في الأفلام! وهذا الهزال؟ أنتِ متزوجة من وقت قريب والمفروض أن يزيد وزنك، أو تحافظي عليه كما هو على الأقل. الحياة الجميلة تجعل الزوجة مقبلة على الحياة".

كانت هذه نظرة أبي إلى الزواج، أن يزيد وزن الزوج وزوجته من الطعام الشهي والسعادة التي ترفرف عليهما. حسنًا، لم أكن سعيدة. وقد كان رفضي أمرًا غريبًا. لماذا أخشى القيام بهذا؟ المفترض أن التنويم المغناطيسي سيكشف لي هوية من فعلَ ذلك بي. إن وجهه في العتمة نعم، لكن شيئًا ما قد حدث جعلني أصاب بذعر غير طبيعي! غرقتُ في لُجّة من الأفكار الحائرة، وتحت وطأة هذا الشعور الخانق قاومت خوفي الغريب وما ينتظرني في العتمة، وقلت:

"موافقة".

***

مفكرتي العزيزة

تسارُع الأحداث الأخيرة يجعلني أهرع إليكِ متحدثة وشاكية ومتألمة. ربما حديثي معكِ يخفف قليلًا من ذلك الشعور البشع!

أين توقفنا في حديثنا المرة الفائتة؟ لقد تذكرت. عند موافقتي على الخضوع إلى جلسة تنويم مغناطيسي. ذهبتُ إلى عيادة الدكتور مشاري جابر وبرفقتي زوجي وأبي وأمي وشقيقي سعدون. سرّني أن يوسف كان قد ذهب إليه سابقًا كما علمتُ حين أفقت من غيبوبتي القصيرة.

جلست أتابع قلادته القديمة وهي تتحرك يمينًا وشمالًا، ثم أطبقَ علي نعاس غريب وسلام نفسي فائق، وكأني أجلس على شاطئ تتهادى في أجوائهِ موسيقى مريحة للأعصاب. فجأة أتاني صوت الدكتور مشاري طالبًا مني أن أتذكر تفاصيل ذلك اليوم الذي طعنتُ فيه. فجأة وجدت كل شيء قد تغيّر من حولي، كما يحدث في الأفلام المزودة بمؤثرات بصرية مدهشة! كنت في الشارع الطويل وعلى جانبيه أشجار السدر الضخمة. كنت أركض، والغريب أنه ليس ركضًا خائفًا من عدو يتتبعني فحسب، بل وكأنه نداء يدفعني دفعًا لكي أقترب من مبنى المصحة الكالح! فجأة فتحتْ أبوابها ووجدت ظلًا هناك ينتظر! ظلًا ضخمًا انطلقَ من الداخل والتهمني حرفيًا! ووسط الظل والتهامه لي، وشعوري بأن قبضة ساخنة تُطبق حول عنقي لمحتُ هاتين العينين الفضيتين. الحق أني كنت أشاهد وأتكلم وصوت مشاري يأتيني من لا مكان!

العينان الفضيتان؟ وجدتُني أقول برعب:

"يوسف! أهو أنت؟!".

فجأة وجدتُني أنتفض من الرعب وصوت مشاري يأتيني:

"أنتِ بخير. حين أفرقع بإصبعيّ استيقظي".

وسمعتُ الفرقعة وانتبهت لأجد نفسي جالسة أمام مشاري، وأنا أرتجف ودموعي تسيل مدرارًا على وجهي. وثبتْ أمي نحوي وأخذتني في حضنها وهي تردد بدون انقطاع:

"كنتُ أعلم أنه هو! كنت أعلم أنه هو!".

لمحتُ فضولًا على وجه مشاري وكأنه مهتم جداً لمعرفة ماذا يحدث بالضبط أمامه، وهو شيء لا ألومه عليه. ألقيتُ نظرة على يوسف، فإذا وجهه ممتقع، وكأنه لا يفهم شيئًا مما سمعه، وهو شيء لا ألومه عليه. أما أبي فقد كان غاضبًا، وهو شيء لا ألومه عليه. لكنّ شيئاً من الحذر جعلنا لا نقول كلمة أخرى، فقط كلمات شكر للدكتور مشاري، ثم انصرفنا لننشر غسيلنا القذر في مكان آخر!

***

وكان المنزل هو المكان المناسب. لم يكن منزلي الجديد، بل منزلي القديم. أصرّت أمي على اصطحابي إلى هناك ولم يمانع يوسف أو أبي أو أخواي... هناك عُقدت المحاكمة. قال أبي بوجه يرتجف من فرط الانفعال:

"هل من الممكن أن أعرف ما معنى هذا؟".

قالت أمي وهي تضمني إلى صدرها:

"وهل هذا سؤال يا أبا سعدون؟! إن زوج ابنتك المحترم هو من طعنها!".

تحرّك سعدون بشكل تلقائي للفتك بيوسف، فقد كان من ذلك النوع قصير الفتيل الذي يتشاجر ثم يسأل عن جلية الأمر، بخلاف موسى الذي يمتلك ذكاء حادًا وغموضًا مستفزًا.

أشارَ أبي إلى سعدون أن يتوقف، ثم استدار إلى يوسف:

"اجلس أمامي هنا يا ولدي".

بدا الحنق على وجه أمي وهي تدخل المطبخ، وظننتُ أنها تفعل ذلك من أجل إعداد مشروب لتهدئة النفوس المشتعلة. سأكتشف بعد قليل أني كنت مخطئة في استنتاجي هذا. قال أبي:

"ما معنى هذا؟".

أما أنا فلم أتوقف عن البكاء.

صرخ أبي:

"أريد أن أفهم، ما معنى هذا؟".

ظهرت أمي على باب المطبخ، وقالت وهي تمسك هاتفها:

"ألم تفهم بعد يا أبا سعدون؟ يوسف هو من طعن المسكينة ابنتك! لهذا هي مضطربة ولا تتذكر شيئًا، لأنها تخشى أن تتذكر! فهي بين نارين: نار أنه زوجها ونار أنه من أراد بها شرًا!".

وثب يوسف معترضًا:

"ما هذا الهراء! أنا لم أفعل شيئًا. هل سأقتل زوجتي؟ ولماذا؟".

قلت بصوت بالغ:

"لقد رأيت أنت عينيك الفضيتين في المطعم كما أخبرتني، ثم آتي أنا وأراهما في العتمة. لهذا رفض عقلي الأمر وضللني وألح علي أن أتجاهله، لأنه كانت تنتظرني في نهاية الطريق المحاط بأشجار السدر العملاقة مفاجأة صادمة، وهي أن القاتل زوجي!".

قالت أمي بظفر:

"أخيراً اعترفت بهذا أيتها الساذجة! لقد أبلغت الشرطة بكل شيء، وهم في طريقهم إلى هنا!".

***

الفصل السادس

- من محاضر التحقيق-

المحقق: ما اسمك؟

يوسف: يوسف سلطان.

المحقق: سنك وعملك؟

يوسف:34 سنة، وأعمل صحفيًا للتحقيقات في صحيفة (.....) بطبعتها الرقمية على الإنترنت.

المحقق: أأنت زوج المدعوة سعاد؟

يوسف: نعم.

المحقق: ما الذي حدث يوم الثالث من يناير الماضي؟

يوسف: غادرتُ المنزل في التاسعة صباحًا، وفي العاشرة كنت في مبنى الصحيفة. ظللتُ هناك حتى الثامنة، ثم غادرت بعدها، وذهبت إلى مشوار آخر.

المحقق: أي مشوار هذا؟

يوسف: الذهاب إلى طبيب نفسي.

المحقق: هل تعاني من مشاكل نفسية ما؟

يوسف: زوجتي مصممة على ذلك.

المحقق: وما الذي يدعوها إلى ذلك؟

يوسف: ألا يمكن أن نتجاهل هذه النقطة يا سيدي؟

المحقق: للأسف لا. يبدو أنها مهمة في سير التحقيق.

يوسف: لا أعتقد ذلك.

المحقق: دع لي تقرير أهمية هذه النقطة من عدمها. أخبرني عن التفاصيل الخاصة بذهابك إلى طبيب نفسي.

يوسف: كنا في مطعم ما، وحدثَ موقف سخيف مع أبناء صاحب المطعم الثلاثة.

المحقق: ماذا حدث؟

يوسف: مارسوا بعض سخافاتهم معي، ثم قاموا بضربي.

المحقق: بدون سبب؟

يوسف: غازلوا زوجتي، مما جعلني أهمّ بالتشاجر معهم، لولا أنها منعتني، ومع ذلك قاموا بضربي. أتى أبوهم وصالحنا وقدّم لنا عشاءً مجانيًا.

المحقق: ثم؟

يوسف: ثم انصرفنا.

المحقق: ما علاقة هذا بذهابك إلى الطبيب النفسي؟

يوسف: حسنًا، أثناء وجودنا في المطعم، نظرتُ إلى المرآة، وخيّل إليّ أنّ عينيّ قد تحوّل لونهما إلى اللون الفضي!

المحقق: الفضي؟

يوسف: هو ليس فضيًا خالصًا. هو أشبه بلون الزئبق. شعرت بالذعر طبعًا، وحين حكيتُ لها لم تصدقني كما هو متوقع. وطلبت مني الذهاب إلى طبيب نفسي.

المحقق: وهل تقبّلتْ رغبتها تلك بسهولة؟

يوسف: في البداية لا، لكن مع إصرارها وإلحاحها وافقتُ. وذهبت إلى دكتور نفسي شهير.

المحقق: ما اسمه؟

يوسف: دكتور مشاري جابر.

***

المحقق: ما اسمكِ؟

فاطمة: فاطمة عبد الله العايد.

المحقق: أأنتِ من أبلغتِ الشرطة بشككِ في زوج ابنتك؟

فاطمة: نعم.

المحقق: لِمَ؟

فاطمة: صارَ غريب الأطوار في الفترة الأخيرة. كنت أشعر أنه يخبئ شيئًا. وقد صدق حدسي حين وجدت ذلك الخنجر المشرشر في دولابه!

المحقق: هل تظنين أنه نفس الخنجر الذي رأتهُ ابنتكِ؟

فاطمة: وهل الصدفة تحتمل وجود اثنين مطابقين؟

المحقق: أنا من أسأل يا أم سعدون!

فاطمة: نعم أظن أنه هو!

المحقق: وهل تظنين أنه طعنَ ابنتك بالفعل؟

فاطمة: نعم.

المحقق: وما دافعهُ إلى ذلك؟

فاطمة: لأنه مختلّ. أظنني قلت هذا من قبل.

المحقق: كلمة "مختل" اتهام خطير.

فاطمة: من يحطم فكوك ثلاثة شباب هو مختل فعلًا!

المحقق: من تقصدين؟

فاطمة: أخبرتني ابنتي سعاد عن أولاد صاحب المطعم، الذين قام زوج ابنتي المحترم بالتعرض إليهم وبضربهم ضربًا مبرحًا، حتى إنهم مكثوا في المستشفى عدة أيام! فحين أقول لك إنه مختل لا تندهش.

***

المحقق: هل حدثَ هذا بالفعل؟

سعاد: لا أعرف لماذا تكلمت أمي في شيء كهذا!

المحقق: هل تكذب؟

سعاد: لقد ذهبتُ إلى الشبان الثلاثة بالفعل وأريتهم صورة يوسف فبدا عليهم الخوف والرعب، ومع ذلك أؤكد لك أنهم مخطئون. يوسف ليس عنيفًا، وهؤلاء الشبان ليسوا مثالًا يُحتذى به في الأخلاق الحميدة.

المحقق: متى غادرتِ المنزل؟

سعاد: الساعة السابعة مساء.

المحقق: ولماذا تظنين أنها السابعة فحسب؟ من الممكن أن تكون السابعة وخمس دقائق مثلًا؟

سعاد: لأن الأتوبيس وقف في المحطة في هذا الموعد.

المحقق: ماذا رأيتِ؟

سعاد: رجل يتتبعني، لكني لم أر وجهه في العتمة، اندفع نحوي وطعنني!

المحقق: لماذا تقولين إنه زوجك يوسف؟

سعاد: لم أقل إنه يوسف. أمي من تؤكد هذا. ما حدث أني أجريتُ جلسة تنويم مغناطيسي، وخيل إليّ أني رأيت عينين فضيتين في وجهه!

المحقق: عينان فضيتان؟

سعاد: إنهما أقرب إلى لون الزئبق لو جاز التعبير!

المحقق: لا أفهم. هل كان يضع عدسات لاصقة بهذا اللون؟
سعاد: وما أدراني؟
المحقق: لماذا افترضتِ أنه يوسف زوجك إذن؟
سعاد: قلت لك إني لم أفترض شيئًا.
المحقق: لكن حسب التحقيق الذي أجريناه مع الدكتور مشاري جابر فقد أكدّ أنكِ قلت في آخر الجلسة: يوسف!
سعاد: حسنًا، حين كنا في المطعم ذات ليلة، زعمَ يوسف أنه رأى انعكاس عينيه على المرآة وقد تحولتا إلى اللون الفضي! لم أصدقه، برغم لهجته التي تؤكد أنه يصدّق نفسه. حين تذكرتُ في جلسة التنويم المغناطيسي العينين الفضيتين الشبيهتين بالزئبق افترضتُ تلقائيًا أن صاحبهما هو يوسف.
المحقق: هل افترضتِ؟!

***

المحقق: اسمك وعملك؟
موسى: موسى إبراهيم، شقيق المجني عليها.
المحقق: هل تظن أن يوسف زوج شقيقتك من الممكن أن يقتل؟
موسى: ليست عندي معرفة كاملة به، لكن أغلب الظن لا.
المحقق: هو نفس رأي شقيقك سعدون وشقيقتك سعاد وأبيك.
موسى: هذا يبرئه. أليس كذلك؟
المحقق: هل رأيت ذلك الخنجر المشرشر من قبل؟
موسى: لم أره في حياتي.

***

المحقق: المفترض أن أقوم باستجواب كل واحد منكم على حدة، لكن بسبب ظروفكم الصحية جعلتُ التحقيق معكم استثنائياً. والآن: هل ضربكم المدعو يوسف سلطان؟
مشعل: إنه وغد! لقد....
حسين: للأمانة يا سيدي، لا أعتقد أنه هو.
مشعل: لِمَ تتكلم يا أحمق؟ دع لي أنا....
المحقق: دع لي يا أستاذ مشعل مهمة تحديد من يتكلم ومن يصمت. أكمل يا أستاذ حسين.
حسين: لقد كنا نسير في زقاق معتم نوعًا ما، وهجمَ علينا شاب طويل وقال لنا: "هذا جزاء اعتدائكم على زوجتي. المرة القادمة سأجتث أعناقكم". ثم انطلق كالإعصار وحطّم عظامنا وأعصابنا!
المحقق: هل رأيتم وجهه الحقيقي؟
بسامي: لا.
المحقق: هل هي نبرة صوته أم أنها مختلفة.
حسين: أعتقد أنها مختلفة. لقد أتت زوجته بالفعل وأرتنا صورته، فافترضنا أنه هو من سياق جملته. لكن بعد أن انصرفتُ شعرتُ بالندم. احتمالية أن يكون هو، أقل بكثير من احتمالية ألا يكون هو!

***

المحقق: هل تعتقد أن يوسف يمكن أن يقتل يا دكتور؟
دكتور مشاري: لا أعتقد يا سيدي.
المحقق: حسب تسجيلات كاميرات الجريدة التي يعمل فيها فقد غادرَ المبنى في الثامنة بالفعل. متى وصلَ إلى العيادة؟
الدكتور مشاري: موعده كان معي في التاسعة. كان آخر مريض عندي

في ذلك اليوم.

المحقق: معنى ذلك أنه قضى ساعة تقريبًا حتى وصل إليك؟

الدكتور مشاري: نصف ساعة فحسب.

المحقق: لماذا تقول هذا؟

الدكتور مشاري: لأنه مكث نصف ساعة في صالة الانتظار حتى فرغت من المريض الذي يسبقه.

المحقق: وبحسب رواية المجني عليها فهذا معناه أن الجريمة تمت ما بين السابعة والنصف والثامنة. أي أنه من المستحيل أن يكون قد قام بها!

الدكتور مشاري: أعتقد ذلك، ولكن....

المحقق: ولكن ماذا يا دكتور؟

الدكتور مشاري: برغم ثقتي أنه لم يحاول قتل زوجته، إلا أنه يحتفظ بسرّ مظلم بداخله. وأعتبر هذا رأي خبير لا يُشق له غبار!

***

الفصل السابع

- تفريغ لما سجّلتهُ الكاميرا المعلقة والقريبة من الركن الشمالي لأحد المطاعم الجديدة-

يجلس رجل وسيم خلف المنضدة، بدا أبرز شيء فيه هو عيناه الكحيلتان، وهو ينظر في قائمة الطعام. يظهر شاب عشريني ويجلس بغتة. يرفع الوسيم عينيه بدهشة. الشاب يقول:

"أأدهشتك رؤيتي يا سلمان؟".

قال سلمان:

"بعض الشيء. كيف عرفتَ أني أجلس هنا يا موسى؟".

نظرَ موسى حوله، وقال بلهجة مستهترة:

"هل تمزح؟ أعرف ولعك بتجربة الطعام في كل مطعم جديد يُفتتح في المنطقة. هذه عادتك منذ خطبتك لشقيقتي سعاد. هل تذكر تلك الأيام؟".

قال سلمان بلهجة بدت باردة، وهو يضع القائمة جانبًا:

"أحاول أن أنساها".

ثم قال:

"سمعتُ أن زوجها قد أفرِجَ عنه".

ابتسمَ موسى، وغمز بعينه اليسرى قائلًا:

"تتابع أخبارها باهتمام كما أرى".

تراجعَ سلمان في مقعده، وقال:

"طبيعي. لقد كانت زوجتي قبل كل شيء، والعشرة لا تهون إلا على ابن الحرام".

تبدّت شراسة في صوت موسى:

"وهل أنت متأكد أنك لستَ ابن حرام؟".

قال سلمان بلهجة بدت صارمة بوضوح:

"احفظ لسانك يا فتى، وإلا قطعته لك".

قال موسى وهو يبتسم:

"هل تريد أن يرفع شقيقي سعدون الفيديو الذي سجّله لك على الإنترنت ليرى الآخرون خسّتك ونذالتك؟".

قال سلمان:

"لا تعتمد على هذا كثيرًا. إذا أوصلتني إلى نقطة لا رجوع منها سأقطع لسانك وأنا مستمتع، فلا تجربنّ غضبي".

صمتَ موسى برهة، ثم قال:

"الآن عرفتُ لماذا طلبتَ مني أن أضع الخنجر في درج دولاب أختي".

قال سلمان وهو ينظر في القائمة مرة أخرى:

"لم أطلب منك، بل أمرتك. كن دقيقًا، لقد ساعدتك وأعنتك في تسهيل أعمالك لفترة طويلة، ثم كان لا بدّ من أن ترد المساعدة من خلال فعل صغير تافه".

قال موسى بصوت يبدو مضطرباً من الغضب:

"أنت فعلتها. أليس كذلك؟".

قال سلمان ببرود:

"فعلتُ ماذا؟".

دمدمَ موسى:

"طعنتُ أختي".

ضحك سلمان:

"يا للخيال الجامح! ولِمَ أفعل هذا أيها العبقري؟".

نقرَ موسى على سطح المائدة بشكل مُنغّم، وقال:

"لتنتقم منها مثلًا، لما فعلتهُ بك".

قال سلمان بلهجة تبدو رقيقة:

"لو كنت أريد قتلها لقتلتها. كن على ثقة من ذلك. لكن هذا لا ينفي أنني شفيتُ قليلًا من غليلي بطعنها. أعتبره نوعًا من العلاج النفسي لي".

وأطلقَ ضحكة أغلب الظن أنها ساخرة. تمتمَ موسى بما يبدو أنه مقت:

"لا أعرف كيف أطعنُك ونفذتُ أوامرك بوضع الخنجر في دولاب أختي! لقد فعلتُها من أجل أن تثير الشبهات حول زوجها. وحتى يحدث ما حدث الآن من فراق".

ابتسمَ سلمان فيما بدا أنها ابتسامة غامضة:

"من بين أهداف أخرى. نعم".

ورفعَ عينيه نحو موسى:

"ثم إنك لم تفعل هذا وأنت مُجبر. لقد فعلتَه من أجل الخدمات التي قدمتُها لك سابقًا في أعمالك القذرة. خدمة مقابل خدمة".

قال موسى بصوت يبدو نادمًا:

"لو كنت أعرف أن هذا هو الثمن لما وافقت".

"لا تكن واثقًا من هذا. الرغبة حين تشتعل في امتلاك شيء تتضاءل كل الأشياء الأخرى أمامه. صدقني أنا خبير في ذلك".

ثم أردفَ:

"كنت سأطلب منك الفيديو الذي سجّله أخوك، لكن هذا سيكون بلا جدوى. لا بدّ أنه أخذ احتياطاته، ونثره في أماكن معينة لا أعرفها. لذا كان من مصلحتي أن ألعب خارج الضوء، في الظل. كان عليّ أن أنثر الشكوك حول يوسف. حين أقوم بمهاجمة ثلاثة الإخوة في زقاق في العتمة، ثم أقول جملة: "هذا جزاء اعتدائكم على زوجتي. المرة القادمة سأجتث أعناقكم"، فمن السهل أن يكون استنتاجهم أنني ذلك الشخص".

تراجعَ موسى فما بدا أنه ذهول:

"أنت من هاجمَهم وحطّم عظامهم؟".

"ومَن غيري؟ أم هل تظن أن زوج أختك الفاشل هذا سيفعلها؟".

سأله موسى:

"لماذا كل هذا التعقيد؟".

هزّ سلمان كتفيه:

"لن تفهم. والآن أخبرني: لماذا أتيتَ إلى هنا يا فتى؟".

قال موسى:

"ماذا لو أخبرت الشرطة بما حدث؟".

ابتسمَ سلمان قائلًا:

"وتعترف على نفسك بالجُرم؟ وتحطّم قلبي والديك عليك من الصدمة والحزن؟ وتتحمل نظرات سعدون وسعاد المحتقرة لك؟ أراهنُ أن المحقق قد سألك: هل رأيت الخنجر من قبل أم لا، وأنك أجبت بالنفي. لا أظنك ستفعلها يا صديقي".

ارتجفَ جسد موسى، بينما قال سلمان:

"والآن اتركني حتى أتناول طعامي. يقولون إنهم يقدمون هنا اللحم البقري المشوي بطريقة بديعة".

سادت لحظة صمت: موسى يتطلع إلى سلمان بعينين تبدوان غاضبتين، بينما سلمان يبدو لا مباليًا بالفتى. بعد برهة قال موسى:

"هل تعلم من هو صاحب هذا المطعم؟".

قال سلمان:

"هل هو أحد أقربائك؟ إذا أوصيتهُ أن يمنحني خصمًا سأكون شاكرًا".

قال موسى:

"بل أنا".

قال سلمان بصوت بدا حادًا:

"أنت ماذا؟".

قال موسى:

"أنا صاحب هذا المطعم؟".

حدّق إليه سلمان، ثم قال:

"ومن أين لك أموال مطعم فاخر كهذا يا فتى؟ أتدرُ عليك أعمالك القذرة كل هذه الأموال؟".

تابعَ موسى وكأنه لم يسمعه:

"وكنتُ أعرف أنك ستأتي يومًا من أجل تجربة المطعم كما هي عادتك. الحقيقة أنا أعوّل على ذلك".

نظرَ إليه سلمان بصمت، ثم قال ببطء:

"هل تعدُ لي فخًا يا فتى؟".

هزّ موسى رأسه:

"بالطبع لا".

ثم أسفرَ وجهه عن ابتسامة بدت شامتة:

"لقد أعددتهُ مسبقًا".

وبإشارة من يده انغلقت الأبواب والنوافذ، ومن المناضد القليلة حولهما وقفَ بعض الرجال، وثمة شراسة على وجوههم. نظرَ سلمان حوله، وبدا غير خائف. قال بلهجة هادئة:

"تعقّل يا فتى، ولا تُلقِ بنفسك في التهلكة. أنت لا تعرف من تواجه".

هزّ موسى رأسه:

"بل أنت من لا يعرف من يواجه، لكن سرعان ما ستعرف".

ونهضَ متراجعًا إلى الخلف ونظر إلى الرجال:

"أريد عملًا نظيفًا يا شباب. أكبر قدر ممكن من الألم، مع أقل قدر ممكن من إصابات في الجسد. سأترك الأمر لخبرتكم في شجارات الشوارع وعمليات البلطجة".

لم يتحرك سلمان من مقعده وقال:

"أنت مخطئ. هل تظنهم سيتحكمون في أنفسهم أو مشاعرهم؟ حين يجدون ضحية مثلي تبدو بلا حول ولا قوة سيخرج الوحش بداخلهم، وسيكون تجلّيه مريعًا. لا تراهن على تحضُّرهم وسيطرتهم على جانبهم الحيواني بداخلهم. سيطحنونني طحنًا".

ابتسمَ موسى وقال:

"اطمئن. أعرف أي رجال اخترتُهم. ولا تستخدم معي هذه الأساليب النفسية السخيفة. هل تظن أنك عندما تقول هذا سوف أتراجع، وأعضُّ بنان القلق خوفًا من تماديهم؟".

نهضَ سلمان وقال:

"أنت لم تفهم يا فتى كعادتك. أنا متأكد من تماديهم، ومتأكد أنني سوف أصير كومة من العظام واللحم بعد قليل على الأرض. هذا ليس احتمالًا أو تخمينًا. هذه نبوءة".

ضحك موسى. وإن كانت ضحكته مرتبكة بعض الشيء. نظر إلى الرجال الذين يبتسمون، أغلب الظن بسبب ذلك المخبول الذي يقول ما لا يفهمونه. قال موسى بتؤدة:

"هل سمعتم يا شباب؟ هذا تحدٍ لكم ولقدراتكم. لا تجعلوني أخسر الرهان أمام هذا المتحذلق. أريد ضربًا موجعًا تُنتزع منه أقصى صرخات ممكنة، وسيتكفّل المطعم بجدرانه العازلة للصوت بكتمها، شريطة ألا يوجد جرح واحد في وجهه أو بقية جسده. مفهوم؟".

أومؤوا برؤوسهم وابتسامة جذلة ترتسم على شفاههم.

فجأة رفع سلمان يده، وقال فيما يبدو أنه هدوء:

"سؤال بسيط يا موسى أطمع في إجابته قبل أن أُضرب".

قال موسى وهو يضرب كفًا بكف:

"ستُضرب، وتريد أن تعرف! يا للفضول!".

قال سلمان:

"تحمّلني لقاء الدم الذي سيسيل مني".

قال موسى وهو يعقد ساعديه أمام صدره:

"اسأل".

قال سلمان فيما بدا أنه اهتمام:

"كيف خرج زوج أختك من الورطة التي كان فيها؟".

قال موسى:

"تقصد يوسف؟ آه، لقد شهدَ الطبيب النفسي الذي ذهب إليه أنه من المستحيل أن يكون قد طعن أختي لأنه في ذلك الوقت كان يجلس أمامه، وهي حجة غياب قانونية متينة".

قال سلمان فيما يبدو أنه عتاب لنفسه:

"خطأ بسيط كهذا لم أحسب حسابه قد أخرجه من الورطة!".

سأله موسى:

"ألهذه الدرجة تكرهه؟".

تجاهلَ سلمان السؤال، وألقى سؤالًا آخر:

"وما اسم هذا الطبيب؟".

"أعتقد أن اسمه مشاري جابر. هل انتهيت من تأجيلك للمحتوم".

ابتسمَ سلمان:

"عجّل به إليّ إذن. هيا أيتها الثيران الغبية، أروني ماذا لديكم؟".

إحتقنَت وجوه رجال موسى، وانقضوا على فريستهم المستفزة لهم، والتي تقف على بُعدِ أمتار منهم!

لم يتحرك سلمان من مكانه، وكأنه لم يرَ انقضاضهم عليه. وحين بدؤوا في ضربه لم يرفع يديه حتى. فقد ابتسمَ بشكل غريب، وهو يتلقّى ضرباتهم. كانت الابتسامة خفيفة في البداية، ثم يبدو أن رؤيتهم لها قد فجّرت غضبًا بداخلهم وغيظًا مستعرًا، فقد راحت ضرباتهم تزيد، معها ابتسامته تتزايد في مزيج فريد غريب غير مفهوم! غير مفهوم لموسى نفسه الذي بدا القلق على وجهه. الدم يسيل من وجه سلمان بغزارة. موسى يقول بفزع:

"لا تتركوا أثرًا أيها الحمقى!".

لكن بدا أن الرجال لم يسمعوه. أعينهم تبدو متوحشة، وهم يزمجرون،

وبدا أنهم لا يسمعون صرخات موسى التي تأمرهم بالتوقف. بدا الآن من إيقاع الضربات أنهم تركوا أنفسهم على راحتها. فصاروا يضربون بأقصى قوة. كل هذا وسلمان لم يسقط، ولم تختفِ ابتسامته من وجهه، وإن غابت خلف طبقات الدم، والأكثر دهشة من كل هذا أنه لم يطلق صرخة ألم واحدة. إن هدف موسى لم يتحقق من الأصل! ثم راحت النبوءة التي تكلّم عنها سلمان منذ نصف ساعة تقريبًا تتحقق. الآن تعالى صراخ الرجال الغاضب وأعينهم ينعكس عليها لون الدم الذي صار يغطي ثياب ضحيتهم، وبدؤوا في طحن سلمان حرفيًا، حتى إن موسى حاول التدخل، لكن أحد الرجال التفتَ إليه وضربه بقوة هائلة جعلته يطير إلى الخلف لمترين، ويرتطم بإحدى النوافذ! الآن صار الوضع مدويًا بكل ما تعنيه الكلمة من كلمة: صار سلمان كتلة من اللحم المفروم وسقط أخيرًا على الأرض، وقد تحولت ثيابه كلها إلى زي أحمر زاهٍ يسيل منه الدم!

وقفَ موسى مذهولًا بصعوبة على رجليه اللتين بالكاد تحملانه. تطلّع بحيرة ممزوجة بالهلع إلى سلمان أو ما تبقّى منه. نقلَ بصره إلى رجاله فإذا هم يلهثون ككلاب الصيد والدم يسيل من ثيابهم هي الأخرى، وقد انتشرت جروح وكدمات على أيديهم من كثرة استخدامها!

راحَ موسى يصفعهم واحدًا بعد الآخر:

"أيها الحمقى! من قال لكم اقتلوه؟ أردت تأديبه فحسب!".

أطلقوا من أجوافهم زمجرة غضب، لكن موسى بدا أن الغضب قد تملّكه أكثر منهم وهو يواصل صفعهم مرة أخرى! ويبدو أن جولة الصفع الثانية قد أيقظتهم من فورة الحماس الدموي هذه. ذلك لأنهم تطلّعوا حولهم بذهول، وراح بعضهم يلطم خديه، وآخر يجثو على ركبتيه غير مصدق، وثالث يبكي بحرقة!

ثم حدث شيء غير متوقع، وغير مفهوم، ومرعب بكل ما تعنيه الكلمة من معنى: لقد نهضَ سلمان!

نهضَ ببطء وهو يحدج الجميع بنظرة غاضبة نارية! تراجعَ موسى إلى الخلف ومعه رجاله، وصرخ:

"ماذا؟ سلمان! هل أنتَ حي؟! مستحيل!".

فجأة ضحك سلمان، وكانت ضحكته عالية مترددة في المكان. مسحَ الدم عن وجهه. أعاد ذراعه المكسورة إلى مكانها من خلال استخدام الذراع الثانية. ضغط على ساقيه الملتويتين فعادتا إلى مكانهما. بصقَ عدة أضراس من فمه. ومن خلال الفراغ القبيح في فمه وابتسامته التي بدت أشد قبحًا وبفعل أشبه بالسحر نبتَ ضرسان بسرعة مدهشة، وهناك سنّ مفقودة على الجانب نبتت مكانها سن أخرى شديدة شابة!

ابتسمَ سلمان وقد بدا معافى تمامًا، بغضّ النظر عن الدم الذي يغطيه. اتسعت ابتسامة سلمان وهو يقول:

"من حسن الحظ أن المكان مغلق جيدًا من الداخل ويكتم الصرخات، فصرخاتكم ستكون عالية أيها التعساء!".

التصقَ موسى بالجدار خلفه برعب وهو يشاهد سلمان يتحرك بسرعة مدهشة، حتى إنه بدا أشبه بومضة ضوء لا يمكن رصدها بالعين العادية، ومع كل حركة من حركاته السريعة كان يسقط رجل مكسور الذراع، أو الساق أو الرأس. وتوالت الصرخات حتى بدا المكان أشبه ببؤرة من بؤر الجحيم، حيث تتعالى صرخات المعذبين!

وانتهى سلمان مما يفعله. تقدّم من موسى الذي التصقَ بالجدار أكثر حتى كاد يصير جزءًا منه، وبصوت مختنق من شدة الرعب قال:

"أنت... أنت.... أنت شيطان!".

ابتسمَ سلمان برقة، وقال:
"سأعتبرها مديحًا".
وهوت قبضته على موسى!

***

الفصل الثامن

- تسجيل خاص يروي فيه

الدكتور مشاري راشد بعضًا من تفاصيل حياته-

وكأني كنت في انتظار ذلك الشخص ليقلب حياتي رأسًا على عقب!

يوسف سلطان: من أي داهية قدمت إليّ؟

كل ليلة أرى ذلك الحلم الذي كان يراه، أو ما يزال يراه. لا أعرف. سيكون من الغريب أن أتصل به حتى أعرف. هل سيقول في نفسه: حتى طبيبي النفسي قد جُنّ؟

تقول زوجتي سندس:

"ما بك يا رجل؟! هل جننت؟ تصحو من نومك صارخًا بلا سبب!".

وتقول ابنتي الصغيرة نادية ذات خمس السنوات:

"لقد شحب وجهك يا أبي وأصابك الهزال! هل أنت مريض؟!".

وأقول لهما:

"أنا بخير حال، لا تقلقا".

لكني كنت أكذب. والحق أني لم أكن أعرف، وكان هذا يضايقني بشدة. طبيب نفسي ولا يعرف ماذا يحدث له!

أمس قابلت مريضًا غريبًا اسمه عمر. كان طويل القامة، وسيمًا، وتميزه عينان شديدتا السواد، وكأن فيهما كحل. قال لي:

"سمعت بأنك عالجت يوسف سلطان يا دكتور!".

أصدرت همهمة ضيق، وأنا أقول:

"ومن أين سمعت هذا؟".

لوّح بيده قائلًا:

"هو قال ذلك".

شعرت أنه يكذب. هاتان العينان تكذبان بلا شك.

قلت مراوغًا:

"ربما. لا أتذكر. هل تعلم كم مريض يأتيني يوميًا".

قال متملقًا:

"اسمك أشهر من نار على علم يا دكتور".

لكني لم أقع في الفخ. قلت بصراحة:

"أنت أتيت إلى هنا من أجل العلاج من شيء ما، وليس للكلام عن يوسف سلطان هذا. لو افترضنا أن كلامك صحيح، وأنا لديّ مريض بهذا الاسم، فأنت تعلم أنه ممنوع بشكل قانوني وأخلاقي الحديث عن المرضى بأي تفاصيل مهما كانت. وما يجري عليهم يجري عليك. أي أن هذا شيء يطمئنك. أليس كذلك؟".

هز رأسه:

"بدون شك".

مرة أخرى شعرت بأنه يكذب. لقد أتى من أجل يوسف سلطان تحديدًا. وشككت أنه يكذب حتى بخصوص اسمه. حتمًا ليس اسمه عمر. لاحظت أنه يتألم ويضع يديه على جانب بطنه.

قلت له بقلق:

"هل لديك مغص؟".

قال متألمًا:

"لا بد أني أكلت شيئًا فاسدًا".

أشفقتُ عليه، وسقيته عقارًا يهدئ آلامه هذه، لكنها لم تنته، فانصرف مهرولًا.

لا أعرف لماذا شغلَ هذا الشخص تفكيري. كدتُ أهاتف يوسف وأخبرهم عنه، لكني توقفت. فلا أريد أي علاقة بهذا الشخص، الذي كان متهمًا من وقت قريب بطعن زوجته!

لكن حين أتيت إلى العيادة اليوم وجدت شيئًا غريبًا. لقد اقتحمها أحدهم!

عرفت هذا عندما فتحت أدراج مكتبي، ووجدتُ أن الشرائط التي أسجل عليها تفاصيل المرضى، وشرائطي الشخصية قد تحركت من مكانها! نعم، لم تكن في حالة فوضى كبيرة، لكنها كانت في حالة فوضى يمكن ملاحظتها مع بعض التدقيق!

من الذي فعلها؟ طبعًا أصابني الجنون وأنا أستجوب طاقم العيادة المكوَّن من الممرض وعامل النظافة، والمسؤول في ذات الوقت عن إعداد القهوة لي. وكانت المفاجأة أن عامل النظافة-وهو شخص قد اكتسبَ ثقتي بجدارة منذ عامين-قد اعترفَ أن نسخته من مفاتيح العيادة قد اختفت في ظروف غامضة! لا أعرف كيف قفزَ وجه عمر إلى ذهني. سألته:

"هل تتذكر مريضًا طويلًا وسيمًا، في عينيه ما يشبه الكحل بسبب شدة سوادهما".

لمعت عيناه وهو يقول:

"نعم، لقد جلسَ معي قليلًا بعد أن خرج من عندك، وترجّاني أن أعدَّ له فنجان قهوة، لأنه يشعر بصداع شديد!".

إذن هو! هو من فعلها! لكن لماذا؟!

ارتفع رنين هاتفي الخلوي، وإذا بي أرتجف، وأنا أسمع صوت يوسف سلطان يقول من خلاله:

"دكتور مشاري، لقد كنتُ أحمق! أسطورة المُبدّل حقيقية! وعرفتُ من هو المُبدّل؟".

***

الفصل التاسع

- من مذكرات سعاد الخاصة-

مفكرتي العزيزة

على سبيل الخروج من الألم الذي أشعر به، دخلت المطبخ، وقررت صنع وجبة يحبها والداي. انهمكت في تجهيزها حتى إني لم أنتبه إلى جرس الباب وهو يرنّ إلا بعد فترة. كان والداي قد خرجا منذ ثلاث ساعات على الأقل. اقتربت من الباب وقلت:

"من؟".

أتاني صوته المتعب المنهك، وكأنه كان يركض لأيام متواصلة:

"أنا يوسف يا سعاد".

ترددت. هل أفتح الباب أم أتجاهله، أم أقسو عليه بعدة كلمات ممكن أن تجيد الأنثى منا لفظها في لحظات ضعفها وغضبها. قلت بخشونة:

"ماذا تريد؟".

بذات النبرة الضعيفة قال:

"عدة دقائق فحسب".

"أنا بمفردي، وأبواي في الخارج".

"عظيم. لا تنسي أنكِ زوجتي".

في هذا كان محقًا. كدت أواصل مسلسل العناد هذا، لولا أن تذكرت أنه في حالة سيئة لا تسمح بذلك. فتحت الباب بحذر، ويا لهول ما رأيته!

وجه ممصوص شاحب، وعينان غائرتان، وشفتان لا تكفان عن الارتجاف. قلت مذهولة:

"ماذا حدث لك؟".

ابتسمَ، أو حاولَ أن يبتسم. قال هامسًا:

"أنتِ على حق. أنا على حافة الجنون!".

انخلعَ قلبي من مكانه. شعرت في تلك اللحظة برغبة عارمة في أن آخذه في حضني، وأن أربّت على رأسه، وأهمس في أذنه بأن الأمور ستغدو طيبة، والحياة ستصير أفضل. وددت قولها حتى لو كنت أعلم في قرارة نفسي أني كاذبة، وأني لا أعرف ما سيأتي به المستقبل. الحق أني اندهشت من رغبتي هذه! هل أكون قد أحببته؟

هو ليس بمتهم عندي، لكن هناك فجوات ومتناقضات في شخصيته لا أفهمها.

"ادخل".

دخلَ بصمت، وجلس على أقرب مقعد قابلهُ. ألقى نظرة شاردة إلى السقف، ثم نظر إلى الأرض.

سألني وهو يرمقني من طرف خفي:

"كيف حالكِ؟".

"أتعافى".

هزّ رأسه أن: جميل ما أقولهُ، أو كأنه يقول: فليكن، أو كأن قصده أن يقول: عن أي تعافٍ تتكلمين؟ ألا ترين وجهي؟

هزة رأس خاوية، وتحتاج إلى مترجم حتى يفسر معناها. قلت له بعصبية:

"ما معنى هزّة رأسك هذه؟".

قال:

"مجرد هزّة يا سعاد".

"ماذا تريد يا يوسف؟".

همّ بأن يتكلم لولا أن رنين هاتفي قد ارتفع فجأة. نظرت في شاشته، فإذا هو أخي موسى. أخي هذا يعمل بنشاط وحيوية، وقد أسّس شركة شحن صغيرة، ومساهم في أكثر من شركة تجارية، ويقيم في شقة منفصلة عنا، ويعتبره أبي الأكثر نجاحًا فينا. كانت علاقته بأمي هي الأفضل على الإطلاق، والتي تنقل له أخبارنا جميعًا. كان يقول بأن وقته من ذهب، وأن أمي-على غير عادة النساء-تتمتع بقدرة عجيبة على الاختصار ونقل الخبر بأقل قدر ممكن من الكلمات!

قلت وأنا أرد مبتسمة:

"أخيرًا تذكرتَ أنّ لك أختًا يا موسى!".

أتاني صوت أنثوي مرتبك:

"معذرة يا أستاذة سعاد. شقيقك مُصاب بشدة، وقد طلب أن نحادثكِ أنتِ تحديدًا!".

***

قبل أقل من ساعة كنا عند موسى في المستشفى. دورية شرطة لاحظت أن باب مطعمه الجديد مفتوح، فدخل أحدهم ووجد موسى ومجموعة من الرجال محطمين تمامًا، وبقع الدم تملأ الأرضية!

نقلوهم إلى المستشفى، وحين فحصوا نظام المراقبة، وجدوا أن ثمة كاميرا تسجل ما حدث، قد اختفت في ظروف غامضة!

موسى أصيب بكسر في فكه، وأُجريث له عملية دقيقة، وفي زحام إجراء عمليات لبقية المصابين نسيَ الجميع أن يتصلوا بأحد من أهالي المصابين في سابقة لم تحدث من قبل! دخلتُ حجرة موسى وقلبي يخفق، ودموعي تسيل. من حسن الحظ أن يوسف كان معي. كان موسى بين اليقظة والنوم. لمستُ وجنته ففتح عينيه في بطء. قلت وأنا أبكي:

"مَن فعل هذا بك؟".

همسَ بصوت متقطع، وهو يرفع أحد أصابعه:

" سلمان مرزوق".

قلت بدهشة:

"سلمان من فعل هذا؟ لكن لماذا؟".

همسَ موسى:

"اقتربي مني يا سعاد، وسأخبرك".

اقتربت منه بالفعل، وهمس في أذني بعدة كلمات بدت شديدة الغرابة!

***

توقفت سيارة يوسف أمام المطعم الجديد. قال وهو يلتفت إليّ بضيق:

"على الأقل أخبريني بما همسَ به أخوك في أذنك؟".

قلت له وأنا أتأمل المكان حولي:

"ستعرف الآن".

سألني:

"لماذا لم تخبري والديكِ بما حدث لشقيقك؟".

"كانت هذه رغبته".

ثم قلت بتردد:

"شعرتُ بأنه خائف علينا مما سيحدث لو علمنا كلنا بما حدث له".

قال بضيق:

"لم أكن أعلم أن زوجكِ السابق مجرد بلطجي حقيرا".

قلت:

"توقع أي شيء من سلمان! إنه وحش بشري!".

"ومع ذلك قبلتهِ زوجًا!".

"هل تحاكمني الآن على شيء مثل هذا؟ هل نسيت أن زواجنا مهدد بالانتهاء؟".

بدا عليه الارتباك. جيد، حتى لا تختلط عليه الأمور، ولا يظن أن بطلبي مساعدته قد تحسنت الأمور!

دخلنا المطعم، الذي لم يعد مسرح جريمة، بعد فحصه وتنظيفه، وانتهاء الشرطة منه. دخلنا المكان، وأسرعت الخطى، محاولة تذكر كلمات موسى جيدًا، حتى وصلت إلى فتحة تهوية، ودفعتها برفق، لأجد لفافة قماش فتحتها بلهفة. قال يوسف بدهشة:

"كاميرا مراقبة!".

قلت له:

"موسى أخبرني أن فيها الكثير من الإجابات".

قمنا بتشغيلها في حجرة المراقبة في الطابق الثاني، وما هذا الجنون الذي رأيناه؟!

***

جلسنا أنا ويوسف على المنضدة ذاتها التي كان موسى وسلمان يجلسان عليها منذ فترة قصيرة. كما رأينا بوضوح ما دار بينهما. مصدومة طبعًا من تصرف موسى الوضيع، والذي تسبَّب في القبض على يوسف بسبب الخنجر! لكن لماذا يفعل سلمان كل هذا؟ أمن الطبيعي أن بغضه ليوسف، ومقته لي بسبب تركي له يجعله يفعل ذلك؟

قال يوسف بحيرة:

"أرأيتِ كيف نهضَ من قلب الدم والعظام سليمًا معافىً؟".

هززتُ رأسي وأنا أشعر بخوف عجيب يجتاحني:

"لو لم أرَ هذا بعينيّ لم أكن لأصدقه!".

قال يوسف وهو يرمقني بتشكك:

"هل من المعقول أنكِ مكثت مع هذا الرجل ثلاث سنوات بدون أن تتعرفي حقيقته؟".

هززتُ رأسي أن نعم. وأنّى لي أن أعرف أنني أعيش تحت سقف واحد مع مخلوق خارق مثله؟

"تساؤلات! تساؤلات! وهل هناك أجمل من التساؤلات؟".

دوّى الصوت في ركن قاعة المطعم الرحيبة، وإذا به سلمان يأتي من باب المطعم، وهو يحرك قدميه بمشيته المغرورة التي طالما كرهتها بعد أن كرهته هو شخصيًا!

قلتُ بمقت:

"أنت؟".

أشار إلى نفسه وهو يحني رأسه بتواضع زائف:

"أنا".

تحرّك يوسف إلى الأمام في تحفز، مما أعاد لي ذكرى المطعم وما حدث فيه. الآن الوضع أكثر تعقيدًا. أمسكتُ ذراع يوسف بشكل تلقائي، ولم تغفل عينا الخبيث سلمان عن حركتي. قلتُ بخشونة:

"ماذا تريد؟".

سحبَ كرسيًا وجلس إلى المنضدة بدون دعوة، وقال وهو يضع ساقًا

على ساق:
"جئتُ أقدّم لكما الأجوبة التي تحتاجانها. فلأكن دقيقًا: بعض الأجوبة فحسب، فبعضها الآخر أنا نفسي لا أعرفه".
جلستُ ودفعتُ يوسف ليجلس، وقلت:
"فلنبدأ بسؤال: لماذا طعنتني أيها الحقير؟".
قال ببساطة وهو يشير إلى يوسف:
"لأتخلص من هذا طبعًا".
قلتُ بمقت:
"وتظن أنني سأعود إليك بفعلك هذا، ونعيش في هناءة وحب؟ أفق من أوهامك هذه. لن أعود إليك أبدًا".
ضحكَ بسخرية:
"صحيح كنتُ أخطط لكي أعود إليكِ بعد أن تنهاري وتنكسري، ولكن لسبب مختلف تمامًا عما في عقلك".
ثم استدار نحو يوسف وقال:
"بالمناسبة. أعتقد أنه يمكن أن تطلق عليه اسم" المُبدّل".

***

للحظات سادَ صمت ثقيل. يوسف أنفاسه تتسارع برهبة، وأنا أحدّق إلى سلمان، ولم أستوعب جُلّ ما قاله. قال سلمان:
"كما أنكما رأيتما في شريط المراقبة فأنا مخلوق غير عادي. أنا المُبَدّل. ما الذي يمكنني فعله بالضبط؟ يمكنني أن أحجّم الغضب والغيرة، وأعظّم الهدوء واللامبالاة على سبيل المثال. هذا يمكن أن يخلق إنسانًا جديدًا. لكن لا أمحو ما أحجّمه، بل يستقر هنالك في حجرة خفية في أعماق الشخصية الإنسانية، أضعهُ في شباتٍ عميقٍ، وأوقظه وقتما أريد".
قلتُ بغلظة:
"هل تظن أننا سنصدق هذا الهراء؟!".
ابتسمَ ملوحًا بيده:
"ألم تري بعينيكِ اللتين سيأكلهما الدود لحظةً نهضتُ من بركة الدم الموحلة المختلطة بعظامي؟".
كان على حق في هذه النقطة. قال يوسف بتوتر لا ألومه عليه في الواقع:
"لم نعرف بعد من أنت، أو ما أنت؟ هل أنت المُبدّل، الذي يقوم بتغيير الأشخاص منذ مئات السنين أم ماذا؟".
تنهّد سلمان بحرارة عجيبة:
"للأمانة لا أعرف. ولهذا تزوجتكِ يا سعادا".
كدتُ أقفز من مقعدي وأنا أقول:
"ماذا؟".
قال بهدوء:
"إذا كنتِ تذكرين فقد رأيتكِ في أحد المجمعات التجارية، وفور أن رأيتكِ شعرتُ أني قد رأيتك من قبل! هذا جعلني أتتبعكِ إلى أن وصلتِ إلى بيتكِ، ثم سألت وعرفت من أنتِ. بشكل ما كنتُ أدرك أن كل شيء متعلق بك. لهذا تزوجتكِ".
حدّقتُ إلى وجهه غير مصدقة. تمتمتُ بذهول:
"أنت تمزح بدون شك. تعبث بعقلي".
هزّ رأسه بجدية:

"مطلقًا".

صرختُ في وجهه:

"ثلاثة أعوام تقريبًا في الجحيم معك، بما فيه من إهانة وتعذيب وقهر وظلم من أجل ماذا؟".

قال بذات الهدوء المستفز:

"أنتِ لم تفهمي بعد كعادتك. إذا كنتِ تذكرين فإن أول ستة أشهر من زواجنا كانت جيدة. كنت أتصرف كأي زوج محب. كنت آمل في تلك الفترة أن أعرف منك سبب شعوري العميق أننا نعرف بعضنا بعضاً، وأنكِ-بشكل أو بآخر-تعرفين العديد من الأجوبة الخاصة بي. لماذا ذاكرتي مشوشة؟ لماذا أعرف جيدًا أني المُبدِّل، ومع ذلك لا أعرف كيف أو لماذا؟ لماذا جسدي يُشفى بسرعة بالغة مهما كانت سوء الإصابات أو حجمها؟ لماذا أتحرك بسرعة مدهشة؟ لماذا توجد صراعات في عقلي، ومشاهد لأشخاص قابلتهم من قبل؟ لماذا أشعر بنبع من المعرفة بداخلي يكاد يتفجر، ومع ذلك فالبئر جافة؟!".

قلتُ بعصبية:

"وبعد أن فشلت في المعرفة انقلبتَ إلى مستوى الوحش! أليس كذلك؟".

قال باهتمام وهو يحك ذقنه:

" كان عليّ أن أضعكِ تحت أسوأ الظروف، حتى أستفزكِ للاعتراف بالحقيقة!".

ضربتُ كفيّ عجبًا:

"أنت مجنون! لا أعرف عن أي شيء تتحدث؟".

قال بتؤدة:

"أو أن أستفزَّ عقلكِ. ربما عقلك يعرف، لكنكِ لا تعرفين!".

قلتُ بعصبية:

"تتحدث كما لو كان عضوًا منفصلًا عني!".

هزَّ رأسه بصمت. تلك الهزة اللعينة الشبيهة بهزة يوسف، مبهمة المعنى!

"لماذا لم تصارحني بالحقيقة إذن؟ لماذا لم تطلب مني ببساطة أن أخبرك إذا كنت أعرف حل اللغز الذي تبحث عنه؟".

ابتسمَ قائلًا:

"هل كنتِ ستصدقينني؟ كنتِ ستتهمينني بالجنون، وتطلبين مني الذهاب إلى طبيب نفسي!".

كان على حق. نفس الأمر حدث مع يوسف، وطلبت منه الذهاب إلى طبيب نفسي، بل وهددته بالانفصال إذا لم يفعل!

قال يوسف ببرود:

"والآن ثم ماذا؟ لماذا كل هذه الصراحة، والتي لا أصدقها بالمناسبة؟".

"ألا تصدقني؟".

"أبسط شيء يهدم منطقك أنه لو سلّمتُ بأن ثمة من قام بتبديلي وأنا طفل، وأن هذا المُبدِّل هو أنت، فمعنى هذا أنك كنت طفلًا مثلي! فأنت تقاربني في العمر أليس كذلك؟".

قال سلمان بتوتر:

"لغز آخر يحتاج إلى إجابة، والإجابة في عقلكِ يا سعاد".

قلتُ بحذر:

"بمعنى؟".

"جلسة تنويم مغناطيسي كفيلة بإخراج هذه الإجابة من أعمق أعماق عقلك!".

***

الفصل العاشر

-تفريغ صوتي لثلاث جلسات للدكتور مشاري جابر-

الجلسة الأولى: سعاد إبراهيم

الدكتور مشاري: حدّقي إلى القلادة جيدًا يا مدام سعاد. هكذا. جيد. والآن تخيّلي أنكِ تجلسين على حافة نهر يجري ماؤه بغزارة. الماء صافٍ ورائق والنظر إليه متعة تسر الأعين. وأنتِ تشعرين بالسرور الآن. أليس كذلك؟

سعاد: أجل.

الدكتور مشاري: هذا النهر ليس عاديًا. إنه يحمل شذرات من كل ذكرياتكِ في الحياة. كل دفقة ماء أمامك تحمل مرحلة من طفولتك وشبابك. هل ترين ذلك؟

سعاد: أجل:

الدكتور مشاري: هذه المراحل فيها ما هو حزين وسعيد وممل وعادي. أليس كذلك؟

سعاد: أجل.

الدكتور مشاري: وفيها ما هو غريب؟

(بعد لحظة صمت).

سعاد: أجل.

الدكتور مشاري: ما هو أغرب شيء رأيتهِ في حياتك. حاولي أن تتذكري جيدًا.

(بعد لحظة صمت طويلة بعض الشيء).

سعاد: كان ذلك منذ ست سنوات. كنت عائدة من زيارة جدتي. راديو السيارة تنبعث منه أغنية أحبها، فأدندن معها بلا توقف. فجأة رأيت شيئًا يلمع من بعيد، خلف حزام أشجار السدر، الذي يشكل الطريق الخلفي للمصحة النفسية. أعرفها جيدًا، ومررت بجوارها كثيرًا، ولم أحب منظرها الكئيب من الخارج، حتى إني تساءلت: لماذا لا تُهدم ويُبنى مكانها مبنى جديد؟ أوقفت سيارتي الصغيرة والفضول يحركني. غادرتُ السيارة، وأنرتُ مصباحًا ضوئيًا صغيرًا يكفل لي الرؤية في غبشة الليل. صحيح أن ذلك المكان معتنى به من حيث أعمدة الإنارة، لكن ماذا عن انحدار الطريق، الذي قد يجعلني أتعثر في سيري؟ استمررت في السير، ثم توقفت مبهوتة أمام شيء عجيب لم أره من قبل!

الدكتور مشاري: ماذا؟

سعاد: رأيت ما يشبه البيضة الشفافة في حجم رجل بالغ، مائلة على حافتها، مغروسة في الرمال، وقد شكلت فجوة عملاقة حولها على هيئة دائرة، تشبه ما تصنعه السفن الفضائية في الأفلام، حين تسقط على الأرض وتصنع فجوة في مكان الهبوط! والعجيب كان ذلك اللون الغريب الذي يتألق به غلافها.

الدكتور مشاري: أي لون هذا؟

سعاد(بتردد): أحسب أنه اللون الفضي القريب من لون الزئبق. انتظر. سأقترب منها أكثر. ألاحظ الآن أنّ جزءًا قد تمزق من غلافها، وكأنّ شخصًا أو شيئًا قد خرج منها!

الدكتور مشاري (باهتمام بالغ): ابحثي بعينيك عن ذلك الشخص/ الشيء الذي خرج منها.

سعاد: حسنًا، ها أنذا أنظر. انتظر. على بعد أمتار من البيضة يوجد رجل فاقد لوعيه!

الدكتور مشاري: رجل؟ صفيهِ لنا.
سعاد: لا أحتاج إلى وصفه. إنه سلمان!
(همهمة).
سلمان: (بدهشة عارمة): أنا؟!
الدكتور مشاري: لا أحد يتكلم إلا هي وأنا.
(صمت).
الدكتور مشاري: هل أنتِ واثقة أنه هو؟
سعاد: لقد كان زوجي لثلاث سنوات. طبعًا متأكدة أنه هو.
الدكتور مشاري: أكملي.
سعاد: لاحظت أنَّ هناك جرحًا عميقًا في جانب جسده، فيبدو أنه في سقطته على جانب الطريق ارتطمَ جسده بصخرة مسنونة انغرست في لحمه، ليسيل الدم بغزارة. ثم رأيت شيئًا عجيبًا. أوقن أني رأيته، برغم أنه يبدو غريبًا!
الدكتور مشاري: ماذا رأيتِ؟
سعاد: سرعوف!
الدكتور مشاري (بدهشة بالغة): سرعوف؟ عن أي شيء تتحدثين يا سعاد؟
سعاد: رأيت سرعوفًا متألق اللون، وكأن الضوء ينبعث منه ينفصل عن غلاف البيضة بسلاسة بالغة، ثم يتجه إلى سلمان الذي بدا فاقدًا لوعيه، ثم فجأة اخترقَ جسده وغاب بداخله. وضعتُ يدي على فمي أكتم صرخة رعب. لم أر شيئًا كهذا من قبل. ثم بدأ سلمان ينتفض ويصرخ كمن يقاوم شيئًا بداخله. ثم فجأة فتح عينيه. هنا لم أقدر على كتمان الصرخة. تراجعت إلى الخلف بذعر، وتعثرت وسقطت على ظهري، بل وتدحرج جسدي عدة مرات على جانب الطريق المنحدر قليلًا. حين نهضت من سقطتي-وأنا أشعر بأن كل عظمة من عظامي قد تحطمت-التفتُّ إليه.
راعني أنه كان جالسًا، وكان ينظر حوله باستغراب، بعينين متقدتين بلون فضي أقرب إلى لون الزئبق! ارتجفتُ كورقة في مهب الريح من الذعر وأنا أراه ينهض واقفًا على قدميه، ثم يتقدم مني بخطوات بطيئة، ثم يتوقف ويتوجه إلى نقطة ما. إنه ينحني، ويمسك بشيء على الأرض. مددت عنقي أكثر بفضول، فإذا الذي التقطه من الأرض كان عبارة عن خنجر مشرشر الشفرة، له مقبض فيه العديد من الزخارف، يبدو أنه قد أعجبه، ثم وضعه في جيبه، ثم استدار نحوي مرة أخرى. أردت أن أركض هربًا من هذا الجنون الماثل أمامي، لكنَّ قدميَّ قد تسمرتا في الأرض، ولم أستطع حراكًا. حين صار على مقربة نصف المتر أمامي سقط أرضًا، وهتف بصوت مختنق:
"أرجوك! أنقذيني مما أنا فيه".
ثم شعرتُ بغلالة سوداء تنسدل على عقلي، وكأنها تحجب هذه الليلة عن ذاكرتي إلى الأبد، وتبعدها عن الأضواء، زاحفة بها إلى حجرة خفية في أعماقي. لقد فهمت! لهذا صرخت حين رأيتُ بعينيَّ سلمان وهو يتبعني ثم يطعنني في صدري، لأن الموقف قد تكرر من قبل، ومرة أخرى نسيت كأن عقلي يطبق ما حدث من قبل بشكل تلقائي! لكن مهلًا. لقد وافقت عليه حين رأيته بسبب هذه الليلة، لقد بدا لي طبيعيًا ضعيفًا يحتاج إلى المساعدة. مهلًا مرة أخرى: هل معنى ذلك أن يوسف حين نظر في المرآة ورأى عينيه تتقدان باللون الفضي أن الموقف كان قد حدث له من قبل؟

الدكتور مشاري: دعكِ من الاستنتاجات الآن. حين أفرقع أصابعي أريدكِ أن تستيقظي.

(صوت فرقعة أصابع).

سلمان(بذهول): لكن ما معنى هذا؟ هل أنا فضائي، وأتيت في تلك البيضة؟ ولماذا لا أتذكر تلك الليلة؟

يوسف: أريد أن أعرف أيضًا يا دكتور مشاري سرّ عينيّ الفضيتين. نوّمني مغناطيسيًا من فضلك!

الجلسة الثانية: يوسف سلطان

الدكتور مشاري: حدّق إلى القلادة جيدًا يا أستاذ يوسف. جيد. اتبعها في حركتها من اليمين إلى اليسار، ومن اليمين إلى اليسار. عظيم. والآن أخبرني: ما هي أكثر لحظة غريبة في حياتك؟

يوسف: حين فتحت بصري فرأيت الكلب يحدّق إليّ!

الدكتور مشاري(بدهشة): ماذا؟ كلب يحدّق إليك؟

يوسف: نعم، كلب أسود ضخم منفوش الشعر، يحدّق إليّ وهو يلهث، بل ويقرّب رأسه منّي، ويلعق وجهي بلسانه!

الدكتور مشاري: لحظة، لم أفهم. أين رأيت ذلك الكلب؟

يوسف: أنظر حولي الآن، وأجدني ملفوفًا في بطانية ناعمة، في قلب مقلب قمامة حديدي! من مكاني هذا يمكنني رؤية مبنى المصحة المنتصب على بعد خمسين مترًا تقريبًا.

الدكتور مشاري: هل أنت طفل الآن؟

يوسف: أجل. أظن أنني أتذكر الآن لحظة بُدّلت. لكن بدلًا من ذلك أجدني أحدّق إلى الكلب كما يحدق إليّ. الكلب ينصرف أخيرًا. بشكل ما أشعر أني كنت مستمتعًا بالتحديق إلى الكلب. أسمع نباح كلاب أخرى. يبدو أنها تطارد شخصًا ما! مهلًا: أمن المعقول أن يكون أبي!

سعاد: هو أبوك بالفعل كما حكت لي أمك من قبل.

الدكتور مشاري: لا أحد يتكلم غير يوسف وأنا. أكمل. ماذا حدث بعدها؟

يوسف: أستمع الآن إلى أذان العشاء. يظهر أبي وهو يلهث والعرق يتصبب على وجهه. يطل عليّ بوجهه وهو يقول بلهفة: "هل أنت بخير يا ولدي؟". أنظر إليه بهدوء على غير عادتي. بدت عليه الفرحة. لا بدّ أنه يظن أني بشكل أو بآخر قد بُدلت. لكن الحقيقة أن ذلك لم يحدث. ما معنى ذلك؟

الدكتور مشاري: معناه أنه لا يوجد مبدّل. أو على الأقل لا يوجد مبدّل بالصورة التي كنا نعتقدها. الآن أريد أن تخبرني بذكرى لها علاقة باللون الفضي. هل يمكنك أن تفعل ذلك؟

(بعد لحظة صمت).

يوسف: لقد كنت أمارس رياضة الهرولة كما هي عادتي. أرى شيئًا يلمع. أجري نحوه. الآن أجد منظرًا غريبًا بالقرب من المصحة. بيضة شفافة مغروسة في الرمال، وكأنها في مركز انفجار قوي، ترك أثرًا عميقًا يشبه فجوة عميقة نوعًا ما في الأرض. وقفت قبالتها محدقًا إليها، وحيث أرى انعكاس وجهي على سطح البيضة الشفاف وهي مائلة قليلًا! ما هذا؟ لقد صار سطح البيضة فضيًا، وأرى عينيّ المنعكستين على سطح البيضة الشفاف تلمعان بلون فضي غريب! الآن أمدّ يدي إلى البيضة. مهلًا يا دكتور مشاري. إني أراك هناك أيضًا! ماذا تفعل هنا؟

الدكتور مشاري (بذعر واندهاش): أنا؟ أين؟

يوسف: أرى جسدك محشورًا بين فرعي شجرة سدر، والإعياء الشديد

على وجهك، وشعرك منفوش! يبدو أنك كنت أقربنا إلى مكان ارتطام البيضة بالأرض، فطار جسدك في الهواء، وتعلّق بالشجرة! ما معنى هذا؟ هل تقابلنا كلنا في تلك الليلة العجيبة؟ ولماذا لا نتذكرها؟ الآن أشعر بثقل ضاغط على عقلي. أنزلقُ في هوة عميقة بلا قرار!

سلمان(بتصميم): الآن أريد أن أعرف أيضًا: ما الذي جعلني أذهب إلى هناك في تلك الليلة.

***

الجلسة الثالثة: سلمان مرزوق

الدكتور مشاري: حدّق إلى القلادة جيدًا يا أستاذ سلمان. أريد أن أعرف موقعك في كل هذه الأحداث. ارجع بنا قليلًا إلى ما قبل سقوط البيضة (لو صحّ حدوث شيء كهذا) وأخبرني: أين كنت قبلها بساعة؟

سلمان: كنتُ في مكتب الدكتور مراد في المصحة. ها هو ذا جالس أمامي.

سعاد(بدهشة): ماذا؟

يوسف: هل كنتَ أحد موظفي المصحة أم ماذا؟

الدكتور مشاري(بصرامة): الصمت من فضلكم. أخبرني ماذا يدور في هذه المقابلة.

سلمان: لقد تذكرت. كل ما فعلته كان من أجل ابنتي جمانة!

***

الفصل الحادي عشر

- من حوار الدكتور مراد مع زوجته-

أعرف أنكِ لن تصدقيني، ولو صدقتني فسيكون بصعوبة نظرًا لغرابة ما سأقوله لكِ، لكنكِ على الأقل تعرفين أني لم أكذب عليك قط فيما مضى، فهل سأفعل فيما هو آتٍ؟ والآتي مبني على الماضي يا حبيبتي. تعرفين أن حلمي منذ زاولت الطب النفسي هو مستشفى خاص يعالج جروح البشر التي لا تسيل دمًا. ثم رأيت ذلك المبنى القديم تحيط به أشجار السدر. كان مبنيًا من القرميد القديم، والأحجار الضخمة، وكان فريدًا في تكوينه، لا يشبه المباني حوله. ربما بناه أحد الأثرياء قديمًا ثم تركه، حتى صار من ممتلكات الحكومة. يقولون إن هذا المكان كانت تُجرى فيه طقوس قديمة شيطانية. لم أهتم. كانت الفكرة المسيطرة عليّ أني أريد ذلك المكان. قمتُ باستئجاره من الحكومة، مقابل شروط معينة للحفاظ عليه، وبالفعل قمت بتجديده، والتخلص من مقالب الزبالة القريبة منه، مع الحفاظ على أعمدته وجدرانه القديمة. تعرفين أنه كلفني ثروة صغيرة. لكن تمّ الافتتاح، وأطلقت عليه" مصحة السدر للأمراض النفسية والعصبية" تيمنًا بأشجار السدر العملاقة التي تنتشر في المنطقة.

وجرى العمل فيه على قدم وساق، لكن ليس كما كنت آمل. المرضى قليلون، وسمعته ليست كما أتمنى، فالأمر يحتاج إلى ثروة صغيرة أخرى، تساعد على الترويج له، وكذلك شراء معدات جديدة متعلقة بمسح المخ، وقنوات مفتوحة مع كبرى المصحات في العالم.

تعرفين أني قاومت لسنوات، ثم استسلمت في النهاية وقررت إغلاق المكان. كان هناك عدد قليل من المرضى، وكلهم أتى بنفسه من أجل العلاج. ثم شيءٌ ما قد حدثَ قلبَ كل الموازين.

مكتبي-كما تعرفين-يقع في الجهة الشمالية من المبنى، يُطل على مساحة تضم أشجار السدر بكثافة، حتى بدت كما لو كانت غابة صغيرة. وكنتُ أعشق النظر من النافذة في الليالي الباردة، وألمح أغصانها تتمايل مع النسيم الذي يحركها. دقات على الباب ودخل مساعدي الدكتور أيمن، وقال:

"إنه معي يا سيدي".

استدرت إليه فوجدته بصحبة ذلك المريض الطويل الوسيم ذي العينين الكحيلتين. قلت بضيق:

"ها أنت ذا يا أستاذ سلمان!".

نظر إليّ ببرود وجلس بدون دعوة، ووضع ساقًا على ساق. قلت بغيظ:

"أرى أنك لم تتخلَّ عن سماجتك وقلة ذوقك بعد"

هزّ كتفيه بلا مبالاة:

"من شبّ على شيء شابَ عليه".

قلتُ له وأنا أزفر بضيق:

"لقد فشلنا في تقويمك يا أستاذ سلمان. لقد تسببت في جرح عاملين هنا بيديك العاريتين، فماذا لو كان معك خنجر إذن؟! ما فهمته أنك تريد التقويم، وأنك تفعل هذا من أجلها".

لم ينطق بكلمة. سلمان مرزوق! سلمان مرزوق! من أغرب الحالات التي أتت إلينا في المستشفى. إنه شخص يجمع بين الوسامة والذكاء والميل إلى العنف! لقد قاست زوجته منه الأمرّين حتى انفصلت عنه، مع تعهد بعدم التعرّض إليها. أتى إلينا يبكي ويقول إنه نادم. ابنته الصغيرة

جمانة أخبرته إنه إذا لم يتغير فلن تحبه، ولن تراه. قال لها إنّ مشاعره هي ما تتحكم فيه. مشاعر الغضب والكراهية والميل إلى التحطيم، وازدراء الآخرين. قالت له ابنته ببساطة إنّ ما يفرّق بين شخص كاره وشخص كاره، الفعل الذي سيأتي بعد ذلك.

وبالفعل أتى، لكنه حذّرنا من خطورته، وصدقَ في تحذيره. ها هي ذي أكثر من حالة تعدٍّ، ودماء تسيل هنا وهناك.

ضاقَ صدري به، وأنا أقول:

"عالج نفسك يا أستاذ سلمان. لا تترك نفسك للوحش الذي بداخلك".

قال بلا مبالاة:

"لقد أتيتُ إليكم ولم تعالجوني".

قلت بحنق:

"وهذا خطأ من؟".

رمقني بصمت. كان أبوه يضربه وهو صغير، وحين دخلَ مرحلة المراهقة، تدرب واهتمّ بجسده، وصار ممشوق القوام، ثم تزوج وكانت زيجة سيئة للغاية بسبب تصرفاته العنيفة، وإطلاق كل شيء يشعر به إلى الخارج بدون حسيب أو رقيب. عندما يشعر بأنه يريد أن يضرب أحدًا يفعلها، ويصل الموضوع إلى مداه الأكبر حين يشعر بلذة العنف فيتمادى أكثر! انتهت الزيجة كما هو متوقع، لكنها أثمرت عن ابنته جمانة. ودّعتهُ على باب المكتب بعد أن وقّع الأوراق اللازمة. هذا ما نفعله يا زوجتي الحبيبة. نقدم خيارًا جديدًا لمن يعانون من سلوكياتهم، وتركهم لمشاعر الغضب والحقد والتعنيف تقودهم إلى هلاكهم، بينما تنزوي الشخصية ذاتها في حجرة خفية بقناعاتها وأفكارها، ثم سرعان ما تلتحم الشخصية المشاعر والطبائع وتصير واحدة موحدة. وهنا منبع الخطورة. أنت حرّ ما لم تضرّ غيرك. فليكن بداخلك مستنقعٌ من العفن، لكن ما سيظهر منك على السطح هو ما سأحاسب عليه. صحيح أنه من الأفضل أن يعمل المرء على نفسه يهذبها ويرقّيها ويجتث الأعشاب الضارة المؤذية بداخله أولًا بأول، لكن إذا لم يستطع أن يفعل ذلك فليحترس من مغبة إخراج مجروره العفن بداخله إلى الخارج! لذلك يوجد القانون، ويعمل الدين كمنظومة كبرى في الحدّ من ذلك من خلال فلسفة الثواب والعقاب!

راقبتهُ من النافذة وهو ينطلق من البوابة الخلفية التي تطل على أجمة كثيفة من أشجار السدر. عدتُ إلى مزاولة عملي لساعتين، ثم دخل أحد العاملين، وقال بفزع:

"يوجد شيء ما يحدث يا دكتور مراد خلف مبنى المصحة!".

سألته:

"ماذا هناك؟".

"فلتر بنفسك".

***

غادرتُ مكتبي بخطوات سريعة، أمام نظرات الموظفين المندهشة، وقد تبعني موظفان. وحين غادرت المبنى تقدّماني إلى النقطة المقصودة. توقفت أمام الغلاف البيضاوي العجيب. هنالك رأيت شيئًا أكثر غرابة:

رأيت أربعة أشخاص يتحركون بطريقة مريبة، كأنهم أشخاص آليون، أو منوّمون! كان منهم سلمان نفسه، الذي كان يتجه إلى الطريق الرئيسي فاعترضتُ طريقه، وقلت بحذر:

"سلمان! ماذا حدث؟".

لم ينتبه إليّ، ولم يتوقف حتى ليسمعني، بل واصل طريقه مع الثلاثة الآخرين، حيث تفرقوا بعد ذلك، وأخذ كل واحد منهم طريقًا مختلفًا. كنت حائراً بين حل لغز وجودهم، وبين الاعتناء بمسألة هذا الغلاف العجيب. أمرت رجليّ بنقله بحذر بالغ إلى المصحة بعد تغليفه بصندوق كرتوني عملاق. احتارا في اختيار مكان له. قلت لهما أن يضعاه في الحجرة ٢٨، والتي كانت شبه خالية. وأغلقت الباب على الغلاف بنفسي، ثم جعلت هذا الأمر طيّ الكتمان، بحيث لا ينتشر أمره. عدت إلى المنزل، وكنت سعيدًا بشكل لا يمكن وصفه. لا بدّ أنكِ تتذكرين تلك الليلة جيدًا. فقد سألتِني إن كنت عثرت على كنز عظيم على سبيل المزاح، فقلت لكِ وأنا أضحك:

"ربما".

في الأيام التالية لم تكن لديّ أدنى فكرة عن هذا الغلاف العجيب، الذي كان يحتوي على شخص ما أو شيء ما. استبعدتُ أن يكون أربعة الأشخاص الذين يسيرون أثناء نومهم، لأنني-ببساطة-أعرف أحدهم (أقصد سلمان)، وسيكون من الغريب أن يكون أحدهم، إلا إذا كانت ملابسات مقابلتهم معقدة!

في الأيام التالية بدأ يحدث شيء في غاية الغرابة. كان هناك مريض مصاب بفصام مزمن. بدأت حالته تتحسن. يأكل جيدًا، يتعامل مع الآخرين بأسلوب متزن ومتعقل، بعيدًا عن التطرف. جلس أمامي في المكتب وقلت له:

"هل تشعر أنك بخير؟".

لوّح بيده وهو يبتسم، وروح العافية تجري في وجهه وصوته:

"لم تكن حالي جيدة هكذا منذ سنوات. لقد توقفت الهلاوس والأصوات الغريبة التي كنت أسمعها يا دكتور. لقد شُفيت!".

مططت شفتي تعجبًا. في الأسبوع التالي وجدت أن ثلاثة من المرضى قد تلاشت أعراضهم المرضية! كدت أشدُّ شعري بقوة من الحيرة! كيف يحدث هذا؟ طبعًا أشاركِ هذه المعلومات يا زوجتي الحبيبة لسبب وجيه ستعرفينه في النهاية، وهو يخالف أحقية المريض في خصوصية لا يجوز انتهاكها. المهم أنّ مريضًا سابقًا قال لي بحيرة:

"ما الشيء العجيب الذي حدث في الفترة القصيرة الماضية حتى تُشفى مما تعاني منه؟".

قالها لتومض صورة الغلاف البيضاوي العجيب في ذهني. هُرعت إلى الحجرة، ولوهلة توقفت حائرًا. كانت الحجرة ٢٧ أمامها الحجرة ٣٠! كان من المفترض أن تكون الحجرة ٢٨، بما أن تصميم الغرف يقتضي وجود غرفة رقمها فردي، وفي مواجهتها مباشرة حجرة رقمها زوجي!

حاولت أكثر من مرة أن أجد الحجرة ٢٨ فلم أفلح! فكرت بأن أستعين بأحد العاملين معي لكني توقفت مفكرًا: هل يمكن أن تكون مسألة الاختفاء متعلقة بوجود الغلاف البيضاوي ذاته؟

في تلك اللحظة ارتجّ الفراغ أمامي، وشعرت وكأن صورة الواقع حولي اهتزت، ثم عادت الحجرة ٢٨ إلى التجسد أمامي!

على الفور، وبدون أن أضيع لحظة واحدة وثبت إلى الحجرة، وفتحتها بالمفتاح الوحيد الموجود للحجرة.

وتطلعت بانبهار إلى الغلاف. همست برهبة:

"من أنت، أو ما أنت؟".

الحجرة لم تظهر إلا حين فكرت في الغلاف البيضاوي فقط. هذا هو المفتاح الخفي للحجرة إذن! شعرت بحماس منقطع النظير يتدفق في

عروقي وبسعادة غامرة. يمكن الآن أن أستنتج-بدون خوف الوقوع في الخطأ-أن السبب في علاج المرضى هو الغلاف البيضاوي! ماذا يفعل بالضبط؟ هذا لغز سأحاول حله على مهل. لكن لأسعد بالنتيجة الآن.

كنت أدور حول الغلاف، ثم توقفتُ برهبة حين رأيت جزءًا منه يتلوّى، وإذا بإنسان من لحم ودم وهو ينئن!

***

تراجعتُ إلى الخلف بذعر، وكدتُ أسقط على ظهري. ثم تمالكت أعصابي المرتجفة واقتربت. كان رجلًا بالفعل، ممزق الثياب، وكان يتطلع إليّ بعينين زائغتين. تمتمَ:

"أين أنا؟".

قلت له بتوجس:

"أنتَ في مصحة السدر للأمراض النفسية والعصبية في الكويت. من أنت؟".

ابتسمَ في تهالك:

"مصحة نفسية؟ إذن فقد نجحَ الوغد!".

وتهاوت رأسه فاقدًا لوعيه. أعترفُ أن ما فعلته فيما بعد كان خاطئًا، وربما اختلطت الرغبة الشخصية مع أهداف أخرى. لا أعرف. الخطأ الذي فعلته أني اعتنيت به جيدًا على مدار السنوات التالية، بدون أن أخبر أحدًا عنه. تحولت الحجرة إلى حجرة سبع نجوم، وكنت أهتم بنظام تغذيته بنفسي، حتى صار بأحسن حال. قد تقولين إن ما فعلته عظيم. وأقول لك: لا. ليس من حقي أن أحبس شخصًا عاقلًا له حرية وكرامة لمجرد أنه الدجاجة التي تبيض لي ذهبًا! للأسف لا يوجد تعبير معبّر عن وضاعتي يماثل هذا التشبيه. لكي تعرفي مقدار النجاح الذي حققته بفضله فيكفي أن تعرفي أن المنافسين لنا راحوا يؤلفون الشائعات، ويقدمون بلاغات مزيفة، ويصورون مقاطع فيديو مختلقة من أجل ترسيخ صورة عنا أننا مصحة فاشلة، وأننا نقوم بتجارب بشعة على أمخاخ المرضى المساكين في أقبيتنا السرية!

لكن كل مرة تأتي لجنة وتعاين وتفحص وتبحث، وتسأل، ولا تجد شيئًا، عدا مسألة اختفاء الحجرة رقم ٢٨، لكن الأمر مرّ سريعًا تحت دعوى أن الخطأ في البناء. وأننا تركنا الأمر على ما هو عليه من باب احترام الأخطاء التي لن تضرّ أحدًا!

برغم صحته الجسدية الجيدة إلا أنّ صاحب الغلاف الغامض راحت صحته تتدهور. لم ينطق بكلمة، طالَ شعره، وكلما حاولت قصّه رفض. ثم منذ ستة أشهر تقريبًا بدأ يفعل شيئًا غريبًا: لقد بدأ يكتب على الجدران. لغة شديدة العجب، هي مزيج من الأرقام والحروف العربية، والأشكال الغريبة للغات مثل اليابانية والكورية! وللحظة يخيل إليّ أنها تمثل معنى معينًا، لكن هذا التخيل يتلاشى!

وما جعلني أشعر بالقلق أكثر هو مقابلتي لذلك الصحفي. موقع إلكتروني طلبَ إجراء مقابلة وجولة في المستشفى. الهدف الظاهر هو مساعدة المصحة على ترسيخ سمعة المكان النظيف الذي يهتم بصحة نزلائه. لكني كنت أعلم أن الهدف الحقيقي هو تصيّد الأخطاء، والبحث عن خطأ، أو ثغرة يتسللون منها. الصحفي اسمه يوسف سلطان. لم أسمع عنه من قبل. وحين دخل مكتبي صعقت! إنه أحد الأربعة الذين قابلتهم في تلك الليلة. تكلّم معي بشكل بسيط ودقيق. إذن هو لا يتذكر شيئًا بالفعل من تلك الليلة! هل أصابهم شيء من الغلاف البيضاوي، أم ماذا؟ كنتُ رقيقًا معه مهذبًا، ومتعاونًا إلى أقصى حد، وبالطبع لم يجد شيئًا.

بعد أن انصرف ضربتُ كفًا بكف. ها أنذا قد قابلت الثاني. تبقّى اثنان. قلتها على سبيل التهكم. ولم أكن أعلم أن الشخص الثالث كان ينتظرني في حفلة من الحفلات التي أحضرها بين الفينة والأخرى. وقف قبالتي وقال وعرّف نفسه:

"دكتور مشاري جابر".

الاسم معروف طبعًا، فقد لمعَ مؤخرًا كواحد من الأطباء النفسيين المحترمين، لكن ما أدهشني أنه بدا لي مألوفًا حتى تذكرت، وسرت قشعريرة في جسدي. إنه أحد الأربعة الذين كانوا موجودين ليلة سقوط الغلاف البيضاوي من السماء!

نعم، لا أجد تفسيرًا آخر. هذا الغلاف البيضاوي العجيب قد سقط من أعلى ليحل مشاكلي، وليخلق دزينة من الأسئلة التي لا أعرف إجابة لها!

قال الدكتور مشاري:

"سمعتُ عن الإنجاز الكبير الذي حققته يا دكتور في مصحتك النفسية. يُشار إلى المصحة اليوم بكثير من الاحترام".

أومأت برأسي:

"أشكرك".

تابعَ كلامه قائلًا:

"لكن البعض ينفخ في النار، ويتكلم عن أشياء غريبة تحدث فيها. طبعًا أنا لا أصدقهم، فلا تُرمى بالأحجار إلا الثمار الناضجة".

قلت بضيق:

"بالضبط".

ثم تركته بدون نطق كلمة واحدة.

بعد أيام من هذا اللقاء، رحلَ صاحب الغلاف الغامض!

***

أتذكّر تفاصيل ذلك اليوم الموجع جيدًا. الحقيقة أنه صار صديقي، أو صرتُ صديقه. لا أعرف. كل ما أعرفه أنني كلما دخلت حجرته الخفية يبتسم، وهو يومئ برأسه إليّ على سبيل التحية. كنت أتكلم له عن أحوال المرضى، وعن ذلك المريض الذي شُفيَ بأعجوبة. صارت حجرته الآن عبارة عن متاهة من الرموز والأرقام على الجدران الأربعة. ثم أشارَ إليّ بما معناه أن أغطي كل شيء بغلاف ورقي سميك. فعلتُ ما طلبه، وصارت حجرته بيضاء بالكامل. نظرَ حوله بارتياح، ثم قال بابتسامة صافية وبعربيّة لأول مرة أسمع صوته ينطق بها:

"أشكرك جدًا يا مراد. لقد أطعمتني وآويتني وحميتني!".

صرخت غير مصدق:

"أخيرًا نطقت مرة أخرى بعد سنوات من مرّتك الأولى أيها المجنون!".

أشارَ إلى فمه وقال بإرهاق:

"ألتزمُ بصمتي من أجلكم يا صديقي، ومن أجل المستقبل الذي لم يوجد بعد".

كانت كلماته غامضة مثله، لكن هذا لم يمنعني من أن أضرب كتفه فرحًا. لكنه لم يتحرك. ابتسامته ما زالت مضيئة على وجهه، لكن جسده النحيف قد سكن.

ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أنفجر في البكاء!

***

صممتُ في قرارة ذاتي أن أدفنه بشكل لائق، رغمَ ما سأقابله من مشاكل لو قابلني أحدهم وأنا أحمل جثته. لكن الأمور مرت بسلام،

ودفنته في نصف الليل الأخير تحت ضوء القمر، في مزرعة أملكها
وداعًا صديقي العزيز الذي لم أعرف اسمه قط!

***

الفصل الثاني عشر

- فقرات وُجدت مكتوبة على جدران الغرفة 28 في مصحة السدرة -

اسمي خالد. لا أتذكّر اسم أبي هنا. هناك الكثير من التفاصيل في ذاكرتي قد ذابت كالشمع، ولم يتبقَّ منها إلا مجرد أثر، يمكن رؤيته، لكن بلا قدرة على لمسه! شيء موجود، لكنه غير موجود في الوقت ذاته! حالة شبحية قاتلة! نوع من العذاب المتفرد!

***

حين أتذكّر العالم الذي خلفته وراء ظهري ينقبض قلبي من الألم. عزائي الوحيد أنه لم يوجد بعد. لكن سبب وجوده يوجد في هذا العالم الذي فقدتُ فيه عقلي للأسف. الآن-وفي لحظة من لحظات التجلي الساطع-تتبدّى لي صورة مدهشة من ذلك العالم الذي كنت فيه. حين كانت السماء زرقاء، شديدة الرزقة والجمال في الواقع، وحيث السيارات الطائرة والقاطراتِ الهوائية المحمولة تعبر أفق السماء في خطوط وهمية متركزة على قضبان كهرومغناطيسية. إنه العام ٢٦١٩ م. حيث بلغ الجنس البشري ذروته في التقدم والتحضر أيضًا. أعرف ذلك جيدًا لأني كنت في العشرين من العمر، وحينها قررت أن أكون رجل أمن.

أتذكر حين قدمتُ أوراقي للشرطة. قال لي العقيد بلهجة هادئة:

"هل تعرف ماذا نفعل هنا يا بني؟".

تذكّرت. العقيد هو أبي. لكن ما زال اسمه ضبابيًا. أغلب الظن أني لن أتذكره حتى الممات. أتذكر أني قلت باحترام:

"نحمي عالمنا من الضياع يا سيدي".

هز رأسه برضا:

"هو ذاك".

ونظرَ من النافذة وقال:

"لقد بلغنا مبلغًا لم نبلغه من قبل في التحضر والرقي من طرق السفر والاتصال، والطب الذي قفزنا في سلّمه إلى أعلى السموات، من تجديد الخلايا، وتعويض الأعضاء البشرية في سرعة مدهشة، بل وهناك ثورة رائدة في فيزياء السفر عبر الزمن، لكن لا أظنها ستنجح!".

كانت هذه معلومة جديدة لي. قلت برهبة:

"السفر عبر الزمن؟ أهذا ممكن؟".

مطّ شفتيه وقال:

"العلماء يقولون إنه ممكن، لكن ثمة معوقات قد تبطئ من سيره، مثل مشكلة التشوّه".

قلتُ بحذر:

"التشوّه؟".

أجابني:

"من سيسافر عبر الزمن سيخسر الكثير، مثل ذاكرته وصحته. سيغدو مخلوقًا تعسًا تتلاعب به الأوهام ويخذله عقله!".

قلتُ برهبة:

"إنه مصير أقسى من الجنون!".

مطّ شفتيه مرة أخرى:

"هو ذاك!".

المفارقة أني لم أكن أعلم أني سأتعرض إلى المصير ذاته بعد ستة

أعوام من هذا اللقاء!

***

لمعَ نجم الدكتور براك بعد عملي في الشرطة بعام. عبقرية فذة، متعددة الاهتمامات في العلوم. كان بحثه رائدًا بالفعل. كنتُ أشاهده على التلفزيون المجسّم وهو يقول في مؤتمر علمي، يُبث للعالم كله:

"المشاعر البشرية عائق ضخم أمام تقدمنا. إن لم نتخلص منها فعلى الأقل علينا أن نُحجّمها. ماذا لو سجنّا مشاعر الخوف والكراهية والرهبة والحب، وأبقينا الفضول والشغف فحسب؟ أراهنُ أننا لو فعلنا ذلك، ففي أقل من عشر سنوات سنصل إلى النجوم!".

سرى كلام الدكتور براك في ربوع العالم سريان النار في الهشيم، وتأجّج جدل واشتعلت معارك، حيث قال البعض قد نحقق إنجازات عظيمة، لكننا سنخسر بشريّتنا! سنتحول إلى آلات فحسب!

بعد أشهر قليلة رُفِضَ بحث الدكتور براك باعتباره مِعولًا لهدم البشرية ذاتها!

***

بعد عامين ارتقى وزير علوم جديد إلى سدّة الوزارة. وأصدرَ بيانًا عاجلًا وافقَ فيه على بحث الدكتور براك!

بعدها بقليل عرفنا أن براك لم يكترث بقرار الرفض قبل عامين، وأنشأ منظمة سرية هو مؤسسها وقائدها، وراح يُجنّد فيها أتباعه والمؤمنين به، حتى تحقّق له ما أراد، وصارَ مسؤولو الدول تحت إمرته!

***

جنّ جنون زعماء العالم. فأتباع الدكتور براك أصابهم مرض غامض دمّر أعصابهم، وجعلهم يتخذون قرارات عشوائية، أطلقوا على إثرها صواريخهم النووية!

ودوّت الانفجارات العظيمة، وماتَ ملايين البشر! في النهاية تبقّت قلة قليلة، وعدنا مئات السنين إلى الخلف، وساد التخلف، وتعكرت صفحة السماء-التي كانت زرقاء صافية -بمخلفات الحرب النووية!

***

صدرتْ لي الأوامر بالقبض على براك مهما كلّف الأمر. الرجل مجنون، اختلطَ لديه شغف الابتكار والبحث والتنقيب في المجهول بحب السلطة. وما دام موجودًا فالعالم في خطر. كان يقيم في قلعة بناها على قمة جبل عالٍ. وكان عليّ أن أستخدم كل مهاراتي في التسلل إلى قلعته.

***

تسلقت الجبل بمشقة ومثابرة. الجليد كان يضرب وجهي حتى كادَ جفناي يتساقطان. استخدمت مهارات مذهلة-لا أتذكر منها شيئًا الآن-حتى صرت واقفًا ألهث في قاعة من قاعات القلعة الحصينة. رمقتُ الشمس المحتجبة خلف سحابة نووية من النافذة المفتوحة. سمعتُ خطوات قادمة فاختبأتُ أسفل مائدة طويلة.

"وإن كنت اختبأتَ بمهارة، لكنّ ظلّك ممتد خلفك يا هذا! اخرج من أسفل المائدة من فضلك".

عضضتُ شفتيّ من الغيظ. (لكل جواد كبوة)، لكنها كبوة كبيرة قد تكلفني حياتي. زحفت حتى تجاوزت المائدة ذاتها، ثم انتصبتُ واقفًا أتطلّع إلى الرجل الذي تسبّب في موت ثلاثة أرباع سكان العالم!

"ما اسمك يا فتى؟".

سألني الدكتور براك باهتمام. قلت بتحفز:

"خالد".
تأمّل بدلتي العسكرية المميزة، وقال:
"رجل أمن أنت إذن! وماذا كانت أوامر رؤسائك يا خالد؟".
قلت بخشونة:
"تصفيتك".
وأخرجتُ مسدسًا صاعقًا تكفي نبضة منه لكي تحوله إلى رماد.
لم يبدُ عليه أنه اهتمّ أصلًا. قال مبتسمًا:
"ثم ماذا؟".
قلت بالخشونة ذاتها، وأنا أصوّب إلى الرأس:
"ماذا ماذا؟".
لوّح بيده
"بعد أن تقتلني. ماذا سيكون مصير الكوكب؟".
"وهل هذا سؤال؟ سيستريح منك ومن أفعالك الإجرامية الخطيرة".
هزّ رأسه:
"لكن نيّتي كانت طيبة. كنت أريد إصلاح العالم المعطوب، إيصاله إلى أكبر قدر ممكن من التطور والتحضر".
"الطريق إلى الجحيم مُعبّد دومًا بالنوايا الطيبة".
قال معترضًا:
"أمقت التعميم. أكرّر: كانت نيّتي خيرًا".
أشرتُ من النافذة المفتوحة:
"وها هي ذي النتيجة أيها المخبول! شتاء نووي أبدي، وكوكب يعيش بقية سكانه في ملاجئ إسمنتية تحت الأرض. صار البشر أشبه بالجرذان تخشى الهلاك إذا صعدتْ إلى السطح. ناهيك عن الطفرة التي ستحدث للمواليد الجديدة، والتشوهات الخلقية. أهنئك. لقد فعلتَ ما لم يفعله هتلر وموسوليني، وبقية جبابرة الأرض في العصور الماضية!".
هز رأسه فيما بدا لي أنه أسى:
"أنت على حق. لقد دمرتُ العالم. هل تعلم أنك لست أول من يريد تصفيتي. هناك كثيرون قبلك، ويبدو أن هذا لن يتوقف حتى أختفي من هذا العالم".
كنتُ أتهيأ للإطلاق وأنا أقول:
"دعْ لي هذه المهمة".
أخذ الدكتور براك نفسًا عميقًا:
"سأصلح ما أفسدته عبقريتي".
قلتُ بحذر فضولي:
"كيف؟".
"سأعود بالزمن إلى الماضي، وسأري الناس أين كانت أخطائي وأصلحها".
قلتُ بحذر أكثر:
"لقد جننتَ حتمًا! السفر عبر الزمن في بداياته".
ابتسم:
"لقد كوّنتُ فريقًا، قمتُ بتحييد مشاعر أفراده السلبية من حب وكراهية وإيثار وغرور وغيرها، وأبقيتُ جذوة البحث العلمي فحسب. وكانت النتيجة إمكانية صنع ثقب دودي محدود في بنية الزمكان، أستطيع من خلاله السفر عبر الزمن فعلًا!".
قلتُ بتوتر:

"وماذا عن مشكلة التشوُّه؟".

حكّ ذقنه:

"يبدو أنك ملمّ بمشاكل السفر عبر الزمن يا صديقي. هذا يعجبني. لقد صنعتُ أداة تكنولوجية متطورة على هيئة سرعوف، تُحمل فيها نسخة مصغرة من ذكريات الشخص مع عقار بيولوجي يحمل القوة والعافية ومقاومة الجروح والأورام والسرعة المذهلة. هذا السرعوف سيكون خطة نجاتي حين أستقر في الزمن الجديد".

قلتُ بخشونة متهكمة:

"أنت لم تعالج التشوُّه الزمني بعد".

قال بحذر:

"بمعنى؟".

هززتُ رأسي وقلت بسخرية:

"أنت تظن أن التشوُّه الزمني عبارة عن هذه الآثار الجانبية فحسب. لا، هناك تشوُّه أكثر. فقدان الهوية. حين تهبط في زمنك الجديد-أياً كان-لن تقدر أن تعيش بلا هوية، وستسعى إلى خلق واحدة. ستكون شخصًا آخر، وهنالك عليك أن تجيب على السؤال الخالد الذي سأله المفكرون والفلاسفة والعلماء عبر العصور: ما الذي يجعلني أنا هو أنا؟ هل هي ذكرياتي، أم شخصيتي، أم طبائعي أم اختياراتي؟ أنت تبسّط الأمور بشكل مُزرٍ، وأحسبُ أنك لو حققتَ هدفك وسافرت عبر الزمن بالفعل، فستفاجأ بأفعال لم تكن في الحسبان. أؤكد لك أن الزمن سيعالج هذا التشوُّه بطريقته".

قالَ ساخرًا:

"أنتَ تعتبر الزمن مخلوقًا حيًا!".

قلتُ ببرود:

"سمّه الزمن، أو الكون، أو التوازن المبثوث في الكون. أيًا كان. ستوجد طريقة ما لعلاج هذا التشوُّه".

ابتسمَ وهو يحك ذقنه:

"أنت مفقد الذكاء بالمناسبة".

قلتُ متجاهلًا مدحه:

"وكيف ستحمي نفسك أثناء عملية السفر نفسها؟".

ابتسمَ في استمتاع، وكأنما راقَ له السؤال:

"سؤال جيد. انظر إلى هذا".

وأشارَ إلى لوحة على الجدار عليها رسمٌ متقن بالألوان، ذو أبعاد ثلاثة، وسألني:

"هل تعرف ما هذا؟".

قلتُ بحذر:

"تشبه البيضة".

قال:

غلاف بيضاوي بالفعل، شفاف، مزود بطاقة لا نهائية وتقنية نانو متطورة، تستطيع أن تحمي عقلي أثناء السفر ذاته، وتحمي جسدي من أي عوامل ضارة خارجية، وفي الوقت ذاته تعمل عمل المؤقِت".

قلتُ بحيرة:

"المؤقِت؟".

ضحك وقال مفسرًا:

"في أفلام الخيال العلمي تجد العالِم قد اخترع آلة السفر، مزودة

بتقويم يحدد الزمن الذي يريده. حسنًا، في حالتي هذه، كيف لي أن أحدد الزمن الذي سأسافر إليه؟ إني أصنع ثقب دودي محدود في البنية الزمكانية، وفكرة تحديد الزمن تكاد تكون مستحيلة عبر طريقة سفر زمنية كهذه".

قلتُ وقد بدأت أفهم:

"وهل هذا الغلاف البيضاوي سيقوم بهذه المهمة؟ أعتقد أن هذا سيحدث من خلال تواصل الغلاف البيضاوي مع عقلك، بما أنه يحتوي جسدك كله. أنت تحدد التاريخ في ذهنك، والغلاف عليه أن يحدد الزمن في تلك المتاهة الزمنية المخيفة!".

صفّق بيديه مستحسنًا:

"أنتَ عبقري يا فتى".

قلتُ بالخشونة ذاتها مع مسحة فخر، لأن شخصية فذة مثل الدكتور براك يمتدحني:

"أعلم".

وضغطتُ زر السلاح، وقلت:

"لكن هذا لن يمنعني من تصفيتك".

ضغطتُ الزر فانطلقت دفقة الأشعة المميتة. وتوقعت أن الدكتور براك سيقفز جانبًا بسرعة مذهلة بما أنه أول وآخر من يمتلك هذه القدرة، بعد أن دمّر العالم، لكنه لم يفعل. فقط تألقت ابتسامته، والأشعة تتكسر على جسده. قال ضاحكاً باستمتاع:

"نسيتُ أن أخبرك أني أرتدي الغلاف البيضاوي بالفعل، لكنه يأخذ شكل الجسد حين يحتويه بالكامل!".

قلت مذهولًا:

"لقد اخترعتهُ بالفعل أيها الشيطان!".

هزّ كتفه:

"مع مساعدة صغيرة من فريقي".

ضغطتُ الزر مرة أخرى ثم ثالثة ورابعة. وكل مرة تتكسر الأشعة على جسده. قلتُ بيأس:

"وأين فريقك هذا؟".

قال بحزن:

"ماتوا. لقد اختاروا أن يموتوا مع أهاليهم على أن يرافقوني في رحلة البحث عن علاج لهذا العالم! حمقى! حرّكتهم عواطفهم من دون أن يفكروا بعقولهم المجردة".

قلتُ بغيظ:

"هكذا يفعل البشر! لكنك بعيد كل البعد عنهم".

أبتسم:

"أنا خلاصة الجنس البشري يا صديقي".

وضغط زرًا صغيرًا في كتفه وقال:

"وداعًا".

لم يحدث شيء، ومع ذلك لم تختفِ ابتسامته. ثم بدأ هذا الهدير يرتجف. الجبل نفسه خيل إليّ أنه يرتجف. صرختُ محاولاً التغلب على صوت الهدير المزعج المُجلجل:

"ماذا يحدث؟"

صرخَ:

"هذه مقدمات فتح الثقب الدودي. انظر! لقد بدأ يتكون للتو".

وبالفعل عن يساره بدأ الفراغ يلتوي ويتلون، ثم يسوّد، ثم تتكون ما يشبه كرة سوداء على بعد متر ونصف من الأرض. ابتسم الدكتور براك، ثم استدار إلى الفجوة التي صارت مجهزة لابتلاعه بالكامل ووثب بجسده فيها!

في اللحظة التالية وثبت صورة أبي وهو يموت. كان في المرحلة الأخيرة من السرطان الذي نخرَ عظامه. قال وهو يلفظ أنفاسه:

"لقد حرصتُ في السنوات القليلة الماضية أن أعلِمك فنون الاستراتيجيات، وخطط المدى البعيد المختبئة أمام بصر المرء. أرجو أن أكون قد أتممت مهمتي معك. تبقى مهمتك أنت في القضاء على ذلك السفاح".

وفاضت روحه.

لا بد أن دمعة فرّت من عينيّ، وأنا أثب إلى الأمام وثبة هائلة تعلمتها بشق الأنفس حتى صرتُ خبيرًا بها، وأخرجتُ من جيب سترتي خنجرًا مشرشرًا حاد النصل، مصنوعاً بطريقة خاصة، وهويتُ به على الغلاف غير المرئي، في نفس اللحظة التي صرخَ فيها براك:

"ماذا تفعل يا....".

وضاعَ صوته عندما أطبقَ علينا الثقب الدودي وسحبنا إلى عتمته الغامضة!

***

لا توجد كلمات يمكن أن تصف شعوري. شعور المُمَزَّق في أرجاء الكون، وكأنّ كل ذرة في مكان، تختلط الأماكن والأزمنة بشكل فوضوي مجنون! ثم استقرّ كل شيء، وفتحتُ عينيّ. كان ذلك الرجل الخمسيني الوقور يحدّق إليّ بدهشة. قلتُ وغلالة من التشوش تظلل عقلي:

"أين أنا؟".

قال وهو يفحصني بعينيه الثاقبتين:

"أنت في مصحة السدر للأمراض النفسية والعصبية. من أنت؟".

ابتسمتُ بإنهاك، وقد استعدتُ ذاكرتي دفعة واحدة، وقلت:

"مصحة نفسية؟ إذن فقد نجح الوغد!".

ثم انسحبت ذاكرتي مني مرة أخرى، مع حالة إعياء شديدة، مما جعلني أفقد وعيي بطبيعة الحال. كان من الممكن أن أتحرك وأخرج من المصحة، وأبحث عن الوغد براك، لكني كنت أعرف أني بذلك قد أعمّق حالة التشوّه في بنية الزمكان. يكفي مخلوق واحد طليق من مستقبل لم يوجد بعد، فكيف بمخلوقين؟ لا. فلأعتزل، ولأمسك لساني في فمي، ولأراقب بصمت، ولأعدّ خطتي بهدوء. كنتُ أعرف أني لن أمكث طويلًا على قيد الحياة. لقد تمسكت بجزء من الغلاف البيضاوي، وأنقذ ذلك حياتي، لكن بشكل مؤقت ففي بقية الرحلة كنت في الخارج، في متاهة الثقب الدودي الغامضة، لقد تضرّر جسدي وأصابه ما أصابه. لذا عليّ أن أبدأ خطتي بسرعة. وها أنذا أكتب على الجدران ما مرّ بي. وفيما مررتُ به، تكمن خطة النجاة، فقط لو أعمل من يقرأ هذا الكلام عقله، ويفهم ما أقوله.

في رسائلي السابقة هذه تكمن بين السطور خطة التخلُّص من الدكتور براك!

***

الفصل الثالث عشر

-مسودة مقالة يوسف سلطان، والتي احتفظ بها لنفسه-

أحاول أن أتمالك نفسي، وأستجمع شتات ذكرياتي المبعثرة، وذلك سيكون بجهد جهيد، وهذا ليس لأن تلكم الذكريات مضى عليها وقت، فبدأت تهترئ وتنطمس في بؤرة النسيان، بل هي من أيام قلائل، لكن بمجرد أن أبدأ بأي شيء فإنه يأخذني عبر مسارات عشوائية مجنونة!

لكني سأحاول هنا أن أكون دقيقًا ومحددًا وأمينًا، مهما بدا ما أقوله غريبًا وغير لائق، ولا يمتُ للمهنية بشيء. دخلت مصحة السدر للأمراض النفسية والعصبية بصحبة زوجتي سعاد، والتي ألحّت لكي تصحبني، ولم أكن لأرفض لها طلبًا في تلك المرحلة الحرجة، حيث خرجت من تجربة صعبة كادت تودي بحياتها. كان بصحبتنا الدكتور مشاري جابر، وذلك الوغد سلمان. كان اللون الأبيض باعثًا على الراحة، لكن ماذا عن ذلك الحضور المقبض للنفس الموجود داخل المكان؟ حتى إني لوهلة كدتُ أغادر بأقصى سرعة، لولا بقية من خجل، جعلتني ألتزم الصمت، وأكتفي فقط بأن أشدّ على يد سعاد التي تحتويها يدي.

في الصالة كان يقف رجل طويل ذو ملامح وقورة، وهو يصدر تعليمات صارمة لرجاله. ما إن وقع بصره علينا حتى قال:

"أأنتم؟".

وتقدّم منا. همسَ سلمان:

"إنه دكتور مراد صاحب هذه المصحة".

قلت بخشونة:

"أعلم. فقد قابلته من قبل".

صافحني الدكتور مراد بحرارة:

"أستاذ يوسف. مضى وقت على لقائي بك لآخر مرة".

وألقى نظرة دهشة على سلمان ومشاري:

"أستاذ سلمان مرزوق ودكتور مشاري جابر. ما الذي جمعكما سويًا؟".

قلتُ بسرعة، وأنا أراقب ملامحه عن كثب:

"الغلاف البيضاوي الشفاف الموجود في الحجرة الخفية يا دكتور مراد!".

ارتجفَ وجهه، ولاحت في عينيه نظرة هلع. قال بارتباك:

"ماذا تقول؟ لا أفهم حرفًا...".

قلت وأنا أترك نفسي في رسم الإيحاء بالمعرفة، وإن أكدت لي ملامحه أني على الطريق الصحيح:

"دكتور مراد: لا تُهن ذكاءنا من فضلك".

ورسمتْ على وجهي علامة اشمئزاز. وقع الرجل في الفخ بسرعة لم أكن أتوقعها. ألقيت جملتي الأولى عن الغلاف البيضاوي والحجرة الخفية في تهور وقلت لنفسي: أصابت خدعتي أو خابت! يبدو أنها أصابت قلب الهدف. نظرَ حوله متحرجًا، ثم قال:

"تعالوا إلى مكتبي".

قلتُ بسرعة وأنا أهمس في أذنه:

"بل فلنذهب إلى الحجرة الخفية مباشرة".

امتقع وجهه، ثم أومأ برأسه. ذهبنا عبر ممرات المصحة، ثم صعدنا إلى الطابق الثاني، ثم توقفنا أمام الحجرة رقم ٢٧. قلتُ بدهشة:

"ماذا؟".

قال موجهًا كلامه إلينا جميعًا: فكروا في الغلاف البيضاوي، تخيلوا صورته في أذهانكم. أعتقد أنكم رأيتموه من قبل في تلك الليلة منذ ست سنوات".

أومأنا برؤوسنا في وقت واحد (إلا الدكتور مشاري فلم يُجر جلسة تنويم مغناطيسي بطبيعة الحال، فكيف سيتذكره؟)، وأنا أستجلب صورة الغلاف البيضاوي من جلسة التنويم المغناطيسي التي أجريتها مؤخرًا. خُيّل إليّ للحظة أن الفراغ حولي يتغير، وكالسحر انبثقت الحجرة رقم ٢٨ إلى الوجود، بلافتتها المميزة، وبالرقم المحفورة عليها! تقدّم الدكتور مراد من الحجرة وفتحها، وولجنا خلفه.

وقفنا مبهوتين، وقلبي يدق بسرعة، وأنا أحدّق إلى الغلاف البيضاوي القابع أمامنا. اقتربَ منه يوسف برهبة، وهو يتحسسه بيديه:

"نعم، أتذكره. لقد صنعتهُ بنفسي!".

التفتُّ إليه بحركة حادة:

"ماذا؟".

قال سلمان وهو يواصل الدوران حول الغلاف كالمجنون:

"سلمان ليس اسمي. بل براك. دكتور براك، وأنا قادم من المستقبل!".

حدّقنا إليه في دهشة. قالت سعاد بتوجس:

"وتذكرتَ كل هذا الآن؟".

أجابها:

"نعم".

أما الدكتور مراد فقد قال بانفعال:

"أنت صاحب الغلاف البيضاوي إذن، وليس هو".

قال سلمان:

"من؟".

قال الدكتور مراد وهو يخرج هاتفه ويضغط عدة أزرار ليرينا:

"هذا".

مدّدنا أعناقنا جميعًا لنشاهد ماذا يقصد، وتوقف بصري عند رجل هزيل، طويل الشعر، غائر العينين.

سألته سعاد:

"من هذا؟".

قال الدكتور مراد:

"إنه من كان في الغلاف البيضاوي".

بدا الدكتور مشاري مأخوذًا بما يرى، وشعرتُ بالشفقة عليه. هذه تجربة جديدة عليه. وبينما أتيح لنا-من خلاله-أن نلقي نظرة على الماضي، فهو لا يعرف، ونحن أيضًا لا نعرف لماذا كان يوجد هناك! أغلب الظن أنه كان مثلنا، ورأى الضوء اللامع، فجذبه فضوله إلى الغلاف البيضاوي.

قال سلمان بصرامة:

"لا يهمني من هو. يهمني أن أستعيد ما هو لي. حين أدخل هذا الغلاف سيتجدد التمزق مستخدمًا القدرة التي لديّ، وسنغدو كلًا لا يُقهر، بقدرات عظيمة".

أدرتُ بصري في الحجرة، وتوقفت عند الجدران. وللحظة خُيّل إليّ أنها تتموج. خطر لي أن ثمة ما وراء ورق الحائط الجديد نسبيًا. مددتُ إصبعي وصنعت خرقًا. ثم رحتُ أوسعه، وحين انتبهَ الدكتور مراد لما

أفعل هتفَ بانزعاج:

"ماذا تفعل؟".

لم أكترث. رحتُ أمزق ورق الحائط كله، ثم توقفت أمام ما هو مكتوب. ولوهلة بدا لي غامضًا مزيجًا مزعجًا فوضويًا من اللغات والأرقام، ثم بدا كل شيء مفهوماً لي.

سيل من الذكريات والمعلومات راحَ يتدفق كنهر جارٍ ببطء، ثم راحت سرعته تزداد، وهو يصب ماءه في أعمق أعماق عقلي! ملتُ على الدكتور مشاري وهمستُ له بشيء، فنظر إليّ بدهشة، ثم أخرجَ شيئًا من جيبه وأعطاه لي، ثم وضعته في جيبي بدوري.

"اسمه خالد، وكان يعمل كرجل أمن في المستقبل!".

قلتُ هذا ببساطة، وهم يحدقون إليّ بدهشة. قالت سعاد بحيرة فيها شيء من الخوف:

"كيف تعرف هذا يا يوسف؟".

أدرتُ عينيّ إلى سلمان، وقلت بهدوء مشفق:

"هل تظن نفسك هو؟".

قال سلمان بشراسة:

"بالطبع أنا هو".

هززتُ رأسي:

"مخطئ أنت إذن".

واقتربتُ من سلمان الواقف بتحفز، وبسرعة مددت يدي إلى جيبه، وأخرجتُ خنجره ذا النصل المشرشر، وغرسته في جانب بطنه بحركة مباغتة! كل هذا حدثَ في ثوان! شهقت سعاد صارخة:

"ماذا تفعل يا يوسف؟ هل جننت؟".

سالَ الدم من الجرح العميق، وسلمان يصرخ:

"أيها الأحمق! أنت لم تفهم أن لا شيء يقهرني. سيلتئم الجرح كما هي العادة".

قلتُ بالهدوء ذاته:

"ليس هذه المرة".

وقلتُ بصوت أعلى قليلًا:

"والآن لتغادر جسده يا عزيزي، وتتجه إلى سيدك الحقيقي! لقد أخطأتَ طريقك المرة السابقة، ولا أعتقد أنك ستخطئ هذه المرة!".

ومن الجرح، انزلقَ سرعوف مضيء إلى الخارج، غارقًا في الدم!

قالت سعاد وهي تضع يدها على صدرها بذهول، وتسأل السؤال الذي تعرف جيدًا إجابته من قبل أن تطرحه حتى:

"يوسف! هل... هل هو أنت سيده الحقيقي؟".

كان السرعوف يتقدم نحوي بسرعة حثيثة، فقلتُ مبتسمًا:

"ألم تعرفي بعد يا عزيزتي؟".

تجاوزني السرعوف، ثم وثبَ ناحية الدكتور مشاري جابرا

***

صرخ سلمان:

"لا".

أمّا مشاري فقد بدا مذهولًا، للحظة، ثم انحرفَ بعيدًا عن السرعوف، وتركه يضرب الجدار بعنف، ثم ينزلق أرضًا! لقد ساعدَ سكون جسد سلمان على اختراقه بسهولة في المرة السابقة. لكن هذه المرة بدت صعبة جدًا. أما الدكتور مراد فقال بدهشة:

"ما معنى هذا؟".

قلتُ بهدوء:

"معناه أن الدكتور مشاري جابر هو الدكتور براك. براك عالم مرموق في المستقبل، تسبّب بحماقاته في تدمير ثلاثة أرباع العالم، حيث تصوّر أنه قادر على أن يصنع الإنسان السوبرمان، الإنسان الذي تُحذف منه مشاعره الإنسانية، أو تُحجّم على الأقل، حتى يحقق طفرة حضارية مذهلة! وكانت النتيجة دمار معظم البشر! ثم قرّر أن يبدأ من جديد في زمن يسبق زمنه بمئات السنين. وهكذا أتى إلى زمننا هذا، من خلال ارتداء هذا الغلاف البيضاوي الذي اخترعه. المشكلة أنه أتى وهو يعرف أن ذاكرته سوف تُحذف، لذا صنع نسخة احتياطية من ذاكرته، ممتزجة بتقنية عصره مع عقار يجدد الخلايا، ويمنحها قدرة تحرك هائلة في الفراغ! ثم وضعَ هذه التركيبة مدمجة في سرعوفٍ آلي، ذي تقنية نانو رائعة! كان من الممكن أن تسير الخطة على ما يرام، لولا تدخل رجل الأمن خالد، والذي مزّق جزءًا من الغلاف بخنجره ذي النصل المشرشر والمقبض المزخرف!".

تمتمت سعاد:

"ماذا؟ الخنجر الذي طعنني قادم من المستقبل؟ ما هذا الجنون؟".

قلتُ مواصلًا الشرح:

"وحين مزّقَ خالد جزءًا من الغلاف، تعرّض إلى تجربة عبور مجنونة في متاهة في عالم آخر، وحين دخلَ زمننا كان جسده في حالة يُرثى لها، لكن الغلاف قام بحمايته بقدر المستطاع! التمزق الذي صنعهُ جعلَ الدكتور براك يُقذف منه على الرغم منه، وينحشر جسده بين فرعي شجرة غليظين! هذا حين رأيته أنا للمرة الأولى!".

كان الجميع يرهفون السمع، والدكتور مشاري يمتقع وجهه.

أكملتُ:

"للأسف غادر السرعوف الآلي الغلاف، واخترقَ جسد أول من قابله. سلمان مرزوق. وبطبيعة الحال بدأ يتصل بمراكز الذاكرة في جسده، وكان من الطبيعي أن يشعر سلمان أنه مختلف بعد ذلك، لما وجده في جسده من قدرات، بدون أن يعلم أنها ليست له!".

قالت سعاد:

"كيف عرفتَ كل هذا؟".

كيف أخبرها أن ثمة لغة مخفية بمهارة بين الكلمات والأرقام والأشكال التي تركها خالد، لغة أمكنني قراءتها، بعد أن مُنحتُ مفاتيحها حين لمستُ الغلاف البيضاوي؟!

وسألني الدكتور مراد وهو ينظر إلى الدكتور مشاري برهبة:

"وماذا عن الدكتور براك؟".

أجبته:

"وجدَ نفسه تائهًا بلا ذاكرة، أو بمعنى أدق: بذاكرة ضبابية. لكنّ عقلًا عبقريًا مثل عقله، لم يجد صعوبة في أن يصنع لنفسه تاريخًا مزيفًا، وإن كان يصبُّ في بؤرة اهتمامه".

سألتني سعاد:

"كيف؟".

"كان خطؤهُ القاتل السابق هو احتقاره للجانب الإنساني وعدم دراسته بشكل كافٍ، لكنه تدارك خطأه هذا هنا، وقرّر أن يدرس الجانب الإنساني، ويعمل كطبيب نفسي".

قال الدكتور:

"أتعني أن شهادته مزيفة؟".

ابتسمتُ قائلًا:

"بالكامل. لكن لتجد دليلًا على ذلك إن استطعت، فأراهنك أن تاريخه المُختلق موجود في كافة الوثائق الرسمية، وأنك لو أخضعته إلى لجنة من كبار علماء الطب النفسي في العالم فسيتفوق عليهم جميعًا!".

قال سلمان بعصبية:

"لو فرضنا أن ما تقوله صحيح، فلماذا لم يبحث عن السرعوف؟".

أجبته:

"أعتقد أنه قد فعل، ولم يجده. لا تنسَ أنه في الأيام الأولى مرّ بتجربة اهتزاز الذاكرة واضطرابها، ولأنه لم يعثر على السرعوف فقد لجأ إلى خطة احتياطية، تجعله يختلق تاريخه المزيف هذا، لكن بعدها حدثَ ما لم يكن يتوقعه".

لمعتْ عينا الدكتور مراد:

"انغمسَ في كذبته المصنوعة بمهارة، وصار يصدقها!".

رفعتُ إصبعي محييًا ذكاءه:

"هذا ما حدث بالفعل. لقد صدّق وأحبّ وتزوج وأنجبَ وصار أبًا!".

تمتمَ الدكتور مشاري:

"هل تقول بأن كل ما أعيش فيه كذبة؟".

قلت بإشفاق:

"ليست كذلك بكل تأكيد. كل ما هنالك أنك سقطت في مستنقع المشاعر الإنسانية المعقدة حتى النخاع، وجربتَ مشاعر جديدة ما كان لك أن تجربها في هيئة الدكتور براك. بالتالي فكل ما مررتَ به حقيقي، وسيظل حقيقيًا ما دمتَ تريد ذلك".

تحرّك السرعوف مرة أخرى، واقتربَ من الدكتور مشاري الذي صرخ:

"ما الذي تريده؟".

قلتُ بهدوء:

"يريد أن يعود إليك يا دكتور بما أنك سيده الحقيقي. يريد أن يمنحك ذكرياتك الحقيقية وعبقريتك الفذة. للأسف لم يكن قريبًا منك هكذا من قبل".

قال سلمان:

"بل كان. حين قابلتهُ في العيادة لأول مرة وشعرتُ بمغص. لقد كان هو الذي يتحرك تحت جلدي! ونفس الأمر في المرة الثانية حين دخلنا تجربة التنويم المغناطيسي، لكني أفلحت في عدم الإبانة عن ذلك، وكتمتُ آلامي بقوة جبارة!".

سألني الدكتور مراد باهتمام:

"ولماذا لم يتحرك في نفس الليلة التي دخلَ فيها في جسد سلمان؟ لقد كان يسير بجواره!".

قلتُ مبتسمًا:

"لا تنسَ أنهم كانوا مُنوّمين، أي أن كل شيء كان خارج نطاق التشغيل لو جاز التعبير".

تقدّم السرعوف مرة أخرى من الدكتور مشاري:

"ماذا تريد؟".

قلتُ بإشفاق:

"أنت تعرف ما يريد".

هتفَ:

"لا، لا أريد العودة".

فجأة تحرّك سلمان بسرعة مذهلة، حيث بدا أن جسده لم يفقد هذه القدرة بالكلية، وصارَ أمام مشاري وأمسك بالسرعوف ووضعه في ثقب جرحه وصرخ:

"أنتَ لي، وأنا لك. أنا سيدك الجديد".

وثبَ السرعوف مجددًا من ثقب الجرح إلى الخارج، وتوجّه بإصرار إلى الدكتور مشاري، لكن سلمان قفزَ مجددًا، وقبضَ عليه بيده، ودفعه في ثقب جرحه وصرخ:

"قلت لكَ إني سيدك الجديد. سيدك القديم لا يريدك".

تكرّر هذا الفعل لثلاث مرات، ثم بدا أن السرعوف قد فهم، وبالتالي لم يغادر مجددًا، ورأينا الجرح ينغلق كالسحر!

وما حدث بعدها كان أكثر سحرًا. بدأ الغلاف في تجديد التمزّق فيه!

قلت محذرًا:

"لا تفعل يا سلمان. اكتفِ بالسرعوف فقط، وما يهبه لك من هبات".

لمعث عينا سلمان:

"هل أنتَ أحمق؟! أنت تعرف ما سيمنحه لي الغلاف؟ القوة الكاملة!".

قلتُ بعصبية:

"سيقتلك أيضًا".

رمقني بخبث:

"أحقًا؟".

قلتُ:

"نعم".

"أنت عدوي ولن ترجو لي الخير بطبيعة الحال".

قلتُ محذرًا:

"لكن ما حدث كان تشوُّهًا في بنية الزمكان. هذا التشوُّه لم يُدرك أبعاده إلا مخلوق واحد".

ارتجفتْ شفتا الدكتور مراد وهو يقول بتأثر:

"خالد".

أشرتُ إلى الغلاف:

"بل هذا. ألم تفهم بعد؟ إنه معالج التشوه الزمني. إنه تقنية من مستقبل لم يوجد بعد، تأثرتْ بعقلين عظيمين أثناء رحلتها الزمنية، رجل أمن مثقف وأستاذ في صنع الخطط والاستراتيجيات، وعالِم عبقري، ثم هي تعرضت إلى عوامل فيزيائية مذهلة في الفراغ أثناء اختراقها للثقب الدودي، كل هذا تشبّعت به، وامتزجَ بها، ولأنّها تنتمي إلى كوننا، فقد رأت هذا التشوُّه وقررت معالجته بطريقتها. هذا ما تفعله. تعالج أشكال التشوُّه حولها بدءًا من الحالات الطبية للمرضى في المصحة، الذين كانوا يعانون من حالات نفسية مزمنة يصعب شفاؤها، حتى التشوُّه الموجود في بنية الزمكان ذاته لو جاز التعبير!".

قال سلمان بغلظة:

"أنتَ تُخرّف".

قال الدكتور مراد:

"هل تعني أن كل ما سبق كان مُعدًا له بالتفصيل؟".

قلتُ بعد برهة:

"لا، بل الخطوط العريضة فقط. رجل الأمن الراحل خالد لم يغادر هذه الحجرة حتى الممات، عقله صارَ متحدًا بالغلاف، وصارَ كل واحد

منهما يعيش بالآخر وللآخر، ثم حين ماتَ خالد بدأ الغلاف في تجميع خيوط الخطة التي بدأ تنفيذها من أول لحظة نزلَ فيها خلف المصحة. لقد بدأت كوابيسي الغامضة منذ فترة قصيرة. ألم يمت خالد من وقت قريب؟".

قال الدكتور مراد بدهشة:

"هذا صحيح".

قلتُ موضحًا:

"هذا حين بدأ الغلاف في التأثير علينا، وجذب الخيوط لتجميعنا هنا".

توهجت الحجرة فجأة بلون فضي لامع، أقرب إلى لون الزئبق، وطارَ الغلاف ببطء نحو سلمان. قلتُ رافعًا صوتي:

"تحذيري الأخير يا سلمان. لا تفعل. لكَ ابنة تحبك وتحبها".

ارتجفَ سلمانُ للحظة ثم قال بعناد:

"ابنتي لن تريد أبًا ضعيفًا".

قلتُ له بصدق:

"أنتَ لست كذلك. أنت وغد فحسب، لكن طريق الإصلاح متاح لك، ما دمتَ تحاسب نفسك، وتسقط وتنهض، وتتعلم وتفهم. هذا هو جوهرنا الإنساني. ما سيُمنح لك قادر على تغييرك بالكامل، ستصير الطاغية الذي سيجد نفسه قادرًا على فعل أي شيء، وبالتالي سيفعله، لأنه قادر على فعله فحسب!".

قال بخشونة:

"احتفظ لنفسك بهذه النصائح".

وأشارَ بيده فالتفَّ الغلاف البيضاوي حول جسده، ثم اختفى. لمعَ جسد سلمان بقوة، وتألقت عيناه، وقال بصوت هادر:

"لقد صرتُ لا أُقهر".

تطلعنا إليه بخوف. رمقَنا بنظرة هازئة، ثم استدار إلى سعاد:

"حانَ وقت العقاب يا سعاد!".

قلتُ محذرًا:

"إياكَ أن تفعل!".

قال باستهزاء:

"وماذا ستفعل؟".

قلتُ بهدوء:

"سأدمرك".

ضحكَ بقوة، حتى ارتجَّت الحجرة الخفية. ضحكَ، ثم انقلبت سحنته إلى ما يشبه الوحش وهو ينقضُّ عليّ ويضربني بالجدار! شعرتُ بأن عمودي الفقري قد انقسمَ إلى نصفين، وآلام مبرحة تضرب جسدي كله في مقتل!

اقتربَ سلمان من سعاد، وبدا معها كقط شرس متوحش يداعب فأرًا ضعيفًا. قلتُ وأنا أنهض بصعوبة:

"ما زالت لديك فرصة للتراجع. انزع عنك الغلاف البيضاوي، واربح حياتك المألوفة البسيطة الجميلة برغم أنك لا تقدّرها حق قدرها".

وقلتُ بصوت أردتُه قويًا، لكن خرجَ مني مهتزًا مضطربًا:

"أرجوك. ابنتك أمها متزوجة ولديها عائلتها الأخرى، وحين تُحرم ابنتك منك ستصير وحيدة! كنْ لها ما هو مطلوب منك أن تكونه".

لمعتْ عيناه بغضب مجنون، وهو يقترب مني، وقد رأيت ظلَّ الموت فيهما:

"أخبرتك ألا تذكر ابنتي".

اقتربَ مني أكثر، وهنا أخرجتُ الشيء الذي أخذته من الدكتور مشاري، ووضعته في فتحة صغيرة جدًا لم تتجدد بعد في الغلاف. فتحة تركها الغلاف متعمدًا.

قلتُ بأسى:

"لم تفهم. أليس كذلك؟".

فجأة بدأ سلمان يصرخ، وجسده يتألق. صاح:

"ما الذي يحدث لي؟".

قلتُ بعصبية:

"لم تفهم بعد يا أحمق. ما ترتديه هو معادل التشوُّه الزمني ومعالجه. لقد أعطاك كل الطرق لتنقذ نفسك، لكنك غبي، أغرتك قوته، وظننتَ أنك لا تُقهر! ما وضعته في الغلاف هي قلادة الدكتور مشاري جابر. نعم، اسمه مشاري، ولم يعُد اسمه براك، ما دام متمسكًا بالاسم وما حوله من حياة وتفاصيل وأشخاص. نحن ما نرغب في أن نكون عليه، وليس في أصل ما نحن عليه".

صرخَ سلمان والتألق يزيد أكثر:

"قلادته؟ لم أفهم!".

قلتُ وأنا أستند إلى الجدار:

"قلادته هي أقرب شيء إلى قلبه، لأنها من ابنته التي هي أقرب شخص إلى قلبه، وبالتالي فهو اختار أن يكون بشريًا بكل ما في اللفظة من متناقضات ومتاعب وأفراح! هذه القلادة هي المفتاح الوحيد لكي تدفع الغلاف وصاحبه إلى متاهة الثقب الدودي، حيث تمارس هناك حياة طويلة جدًا بقدراتك الخارقة، لكن ستكون مسجونًا هناك، بلا طعام أو شراب أو مشاعر! مجرد مخلوق له قدرات عظيمة، لكنها لن تنفعه بشيء. لقد تحققت أمنيتك وصرتَ لا تُقهر!".

صرخَ سلمان:

"مستحيل! هل معنى ذلك أني....".

ودوّت فرقعة في الحجرة، والتي انكمشت ثم اختفت من مكانها إلى الأبد!

***

حين استيقظتُ كنت ملقىً على ظهري خلف المصحة وسط أشجار السدر. وكذلك معي مشاري وسعاد. نهضت ونظرت حولي. كانت سعاد بخير وهي تنفض التراب عن رأسها. مشاري نفس الأمر. أمّا مراد فقد كنتُ أعرف أنه في مكتبه، ملقى على ظهره فاقدًا لوعيه، وسيستيقظ بعد قليل مع تغيير جوهري.

هرعتُ إلى سعاد:

"أأنتِ بخير؟".

قالت بتوجس:

"من أنت؟ وماذا أفعل هنا؟".

قلتُ لها مبتسمًا:

"لقد حدثت حادثة بشعة، لكننا على قيد الحياة".

قال مشاري بقلق:

"لا بد أن ابنتي نادية في شدة القلق الآن!".

ثم بحث في جيبه وقال بتوتر:

"أين قلادتي؟ إنها هدية ابنتي الثمينة لي!".

قلت بهدوء:
"أهم شيء أنك بخير، وأنها بخير يا دكتور".
قال بتشكك:
"كيف عرفت أني دكتور؟".
قلت ضاحكًا:
"أنت أشهر من نار على علم يا دكتورا!".
نظرَ إليّ بريبة، وقالت عيناه إني أكذب، وبالفعل كنت أكذب. لقد تسبّب تصحيح الوضع، ومعالجة التشوُّه الزمني في نسيان الأطراف المشاركة فيه لكل شيء، باستثنائي أنا! أنا من سأتذكر كل شيء، وسأحمل عبء معرفة كل ما حدث، بينما الآخرون قد نسوا!
أو أُجبروا على النسيان!
هذا لأني حين قابلت الغلاف هنا لأول مرة ولمسته بيدي انسكبت الخطة في عقلي مرّة واحدة، لكن في لحظة خمول، لكن حين رأيت الرسائل على الجدران فُعِلّت الخطة!
نسيت سعاد كل شيء متعلق بسلمان، وكل شيء متعلق بي. سرنا بخطوات مضطربة ناحية الطريق. قلت لها:
"أنا يوسف بالمناسبة".
قالت بتلقائية:
"اسمي سعاد".
ثم احمرّ وجهها:
"معذرة، لا أعرف لما أخبرك باسمي!".
غمزت بعيني:
"ربما تقابلنا من قبل، في حياة أخرى".
لمعت عيناها، وأطلقت ضحكة قصيرة، ونحن نواصل السير.
***